إميل حبيبي: الحوار الأخير

أنا مانعة الصواعق الفلسطينية

أجرى الحوار:
أحمد رفيق عوض، منذر عامر، ليانة بدر وزكريا محمد

في الثالث عشر من نيسان الماضي، التقينا إميل حبيبي وأجرينا معه هذا اللقاء، كنا نعلم أنه متعب ومريض، ولكننا لم نكن نعلم أنها قد تكون مقابلة الوداع. لكننا في أثناء الحديث نسينا ذلك تماماً. كان نشاطه الذهني قوياً، وكانت أفكاره مترابطة، وكان يتكلم كما لو أنه لن يغادرنا إلا بعد وقت طويل. لا، بل انه قال لنا: «وعندما أموت، بعد عمر طويل، أوصيت أن يكتب على قبري: باقٍ في حيفا». لكن هذا العمر لم يسعفه، وعقله الصاحي كان يعمل في جسد يموت. لقد خدعنا صفاء ذهنه، فظننا أن الموت بعيد عنه وعنا. لكن اللقاء كان لقاء الوداع. ففي بيت الوزير ياسر عبد ربه، وبالقرب من آخر نار شتوية قال إميل حبيبي كلماته الأخيرة. قال لنا إنه «مانعة صواعق الفلسطينيين». وكان مانعة صواعق حقاً، ومن كثرة البروق التي أطفأتها روحه التي كانت تريد منع الصواعق عنا، انهار (أبو سلام).

وكان لنا في «دفاتر ثقافية» (صحيفة وزارة الثقافة الفلسطينية) شرف أن نأخذ من فمه الكلمات الأخيرة. وها نحن نقدمها، فهي وصيته لنا.

إميل حبيبي رجل خلاف وجدل. آراؤه مفاجئة مباشرة ومستفزة. لذا فأنت حين تظن أنك تربكه بأسئلتك، تفاجأ بأن إجاباته هي التي تربكك. فهو مستعد تماماً لتقبل أقوى التهم وأمتنها، لكن فضيلته الكبرى هي قدرته على نقد الذات. ففي مثل عمره (وهو في الخامسة والسبعين) ينكمش الكتّاب والمفكرون على أنفسهم، ويميلون إلى المحافظة. غير أن إميل يفعل العكس. إنه يلقي بنفسه

في جحيم الأسئلة الجديدة، ويمنع الماضي من أن يرقد بسلام، ويستحضره لينقده ويعيد النظر فيه، وهو يبدأ بذاته هو، نقداً ومراجعةً وتقويماً، قبل أن يتجه إلى الآخرين. جسد إميل جسد عجوز، لكن عقله عقل شاب، وحماسه حماس طفل. وقد حاولنا في هذا الحوار أن نذهب معه في مغامرته نحو الماضي والمستقبل، في الأدب والسياسة، فكانت هذه الصفحات.

س: هل لك بعد كل هذه السنين أن تفسر لنا الدور السلبي الذي اتصف به «سعيد أبو النحس المتشائل» في موقفه من الأحداث، وهل أثبتت التغيرات اللاحقة صحة موقفك؟

ج: لقد سئلت هذا السؤال عدة مرات، والجواب نضج لديّ، وهو: ما الذي أردتُ من شخصية سعيد أبي النحس المتشائل؟ طبعاً أنا حين أكتب لا أكتب مستهدفاً رسالة معينة، وإنما أكتب عفو الخاطر. غير أنني لا أستطيع أن أخرج من جلدي ومن مجتمعي، ولا أحد يستطيع أن يخرج من جلده، ومن جلد مجتمعه، حتى ولا أجاثا كريستي. لكن في نهاية الأمر من الممكن حتى للكاتب نفسه أن يتساءل: إلى أين وصلت، وماذا أردت؟ ومع أن العديد من النقاد طلب مني مباشرة ألا أقوم بدورهم وألا أفسر أنا ما كتبته، لأن ما يكتبه الكاتب الأديب المبدع يصبح واقعاً خارج إرادته وملكاً للقارئ، ملكاً للرأي العام. مع ذلك، وفي هذا الإطار، في هذه الحدود، سمحت لنفسي أن أكتشف هدفين من وراء شخصية سعيد أبي النحس المتشائل. الهدف الأول هو الدفاع عن تصرفات شعبي الفلسطيني الذي تحمل البقاء في وطنه، في ذلك الجزء منه الذي قامت عليه دولة إسرائيل. ومهما يقال عنا فإن الحقيقة أنه ما كان من الممكن لنا أن نصمد من دون أن ندفع الثمن بالمقابل. صحيح أنه لولا مقاومتنا، وما دفعنا من ثمن باهظ في هذه المقاومة، ما كان من الممكن أن نبقى في بلادنا. لكن مع ذلك علينا أن نعترف أن الأكثرية الساحقة من شعبنا ـ فيما تسمونه الداخل ـ التجأت إلى ما يسمى بسلاح «الصبر الحامض». وكنا كثيراً ما نغني في ليالينا الموال العراقي: «أصمد على الضيم، إن جار الزمان وحكم».

فهل كانت هذه الأكثرية التي صبرت وتصابرت مخطئة كما أوهمنا نحن أنفسنا، في بداية هذه المرحلة المأساوية من تاريخنا، خلال معركتنا، معركة مقاومة الظلم والترحيل وهدم القرى وهدم البيوت، والتمييز القومي العنصري الفظ ضدنا؟. كنا نجد أنفسنا وحيدين في كثير من الأحيان، ودفعنا ثمن دورنا الطليعي. وفي ساعات الإحباط، وهي كثيرة، كنا نتجه نحو لوم الجماهير الواسعة من شعبنا على عدم محاولتها أن تجد طريقتها للبقاء في وطنها. أنا أردت أن أستخلص العبرة من هذه التجربة، وهي أن الجماهير العريضة إذ تمر بمثل هذه المرحلة التي تتميّز بالسؤال: إما البقاء وإما الزوال؟ ربما تكون أكثر عقلانية من الطليعة. قد لا يكون معروفاً لكم مثلاً أننا، في بداية مرحلة وجودنا

في داخل إسرائيل. هاجمنا المثقف العربي حين قبل أن يكون معلماً في مدارس اسرائيل. أو أننا كنا نتهكم عليه مثلما كنا نتهكم في زمن الإنتداب البريطاني على الذي يلبس، كما كنّا نسميه، «بوليس إضافي». كنا نقول «ليس معلم». يعني كنا نعتبر هذا الأمر ما يشبه الخيانة. هاجمنا من يقبل العمل في الإذاعة الإسرائيلية، القسم العربي في الإذاعة الإسرائيلية. هاجمنا من ينجح في أن يصبح محاضراً في جامعة إسرائيلية. لم يدم موقفنا هذا طويلاً، ولكننا ما زلنا نجني ثمار هذا الخطأ. ففي لحظة من اللحظات رأينا أن الأكثرية الساحقة من الموظفين والمثقفين والمحاضرين في الجامعات ابتعدوا عنا. وهذا الأمر تكرر، في ما بعد، في بداية الإحتلال الإسرائيلي سنة 67 حين كانت التنظيمات الطليعية الفلسطينية تحارب عمل العمال داخل إسرائيل. أنا كنت، منذ زمن طويل، واحداً من أولئك الذين أرادوا أن يتفهّموا موقف جماهيرنا الواسعة. من المفيد أن أذكر أن أول ما أثار شكوكي، منذ زمن طويل، هو قول جوزيف ستالين: اننا نحن الشيوعيين جُبلنا من طينة خاصة. منذ ذلك الوقت لم يعجبني هذا التعريف. يعني نحن أردنا أن ننفصل أنفسنا عن جماهير شعبنا. أنا حاولت، وخصوصاً وصلت محاولتي هذه إلى النضوج في روايتي عن «سعيد أبي النحس المتشائل».

الكتيبة الخرساء

أنا دافعت عن حق شعبي في أن تتصرف جماهيره الواسعة كما تصرفت. ولم أعتبر هذا خنوعاً، بل طريقاً اجترحه هذا الشعب في أوضاع غير محتملة بالمرة. أوضاع عزلة تامة. اجترحه من أجل الدفاع عن حقه في البقاء في وطنه. أنا أعتبر أن سر نجاح روايتي «سعيد أبي النحس المتشائل» هو بسبب أن المرحلة التي كتبت عنها قد نضجت. وهذا النضوج هو الذي أعطى حق البقاء لهذه الرواية. والأمر الثاني، مرتبط بالأمر الأول، هو أنني أردت ان أدافع عن حق الأكثرية الصامتة في أن تصمت. تذكرون بيت أبي العلاء:

«يرتجي الناس أن يقوم إمام / ناطق في الكتيبة الخرساء

كذب الظن لا إمام سوى العقل / مشيراً في صبحه والمساء».

والجماهير الواسعة عقلانية إلى أقصى حد. وهي ليست رعاعاً كما نوهم أنفسنا نحن الطليعة أحياناً. ولا دهماء. وكل شيء مستعدة الجماهير الواسعة أن تقوم به إلا المغامرة. فأنا دافعت، ولا أزال أدافع، عن حق الكتيبة الخرساء في أن تخرس في أوضاع معينة. إلى هذه الدرجة أنا وصلت. وبالطبع هذا من الممكن اعتباره كفراً وإلحاداً.

س: هل تعتقد أن سعيد أبي النحس ممثل للفلسطينيي الـ 48 فقط؟ نحن نظن أنه صار تعبيراً

من كل الفلسطينيين في لحظة ما، خصوصاً بعد هزيمة عام 1967 . فكل واحد منا يجد شيئاً من أبي النحس في داخله!!

ج: هذا صحيح. كما وجدت أن ظاهرة الضعف الإنساني المتمثل بالإتكالية الإنسانية ليست ظاهرة أو مميزاً خاصاً لشعبنا، وإنما لكل الشعوب. وما من شعب مرّ بمرحلة مثل التي مررنا بها إلاّ وكان له سعيده أبي النحس المتشائل. الجندي «شفيك» مثلاً وفي نواح معينة، وربما عكسية، أنا متأثر برواية «دون كيشوت» لسرفانتس. كل شعب عنده (سعيده). وسؤالك يفتح جراحات، وهي جراحات ما يبديه العديد من الفلسطينيين من حياء تجاه ضعفهم، ضعفهم الإنساني، كما لو أنه عيب. إسمحوا لي وتستطيعون نشر ذلك: قبل اسبوع جرى الاحتفال بمرور أعوام على مجزرة دير ياسين، وكُتبت كتابات، وإذ بالكتابات الفلسطينية تشيد بنضال أهالي دير ياسين، وأنهم ذهبوا شهداء وهم يدافعون من بيت إلى بيت. يا عمي هؤلاء ضحايا قتلى. قولوا الكلمة: قتيل. العالم ضجّ لمجزرة دير ياسين. المذابح التي اقترفوها ضد ناس عزل، نساء وأطفال. ثم نحكي عنهم بأنهم شهداء. كتب لي سعد الله ونوس رسالة قصيرة قال لي فيها: مأساتنا في العالم العربي أننا نقتل القتيل مرة ثانية.

س: عندما كتبت رواية «سعيد أبي النحس المتشائل» هل كنت تفكر بكل ذلك أم أن هذا تفسير وصلت إليه متأخراً؟

ج: الجذور كانت موجودة. وهذا الشعور كان موجوداً في المجتمع العربي في إسرائيل. هنالك شبان بعضهم لا يزال موجوداً حتى اليوم لا يقبلون لا إتفاق أوسلو ولا حتى قرار التقسيم من عام 1947 . لي حق أن أقول أن جذور موقفي هذا الذي حدثتكم عنه، نشأ في ذلك الوقت، وتطور منذ ذلك الوقت. ومما لا شك فيه أنه نشأ منذ أن وافقنا، نحن في عصبة التحرر الوطني، على قرار التقسيم الذي أقرته الجمعية العمومية للأمم المتحدة في 29 نوفمبر 1947 . رأينا الإحتمال الآخر. وهو النكبة التي حلّت بشعبنا. فماذا نستطيع أن نفعل أمام مؤامرة عالمية ضخمة؟. لذلك كان جوابي: نعم. فأنا منذ ذلك الوقت وطول الوقت. سياسياً. كنت في هذا الإتجاه. إتجاه التحذير من المغامرة. من المغامرة بحياة أفراد شعبنا. أنا كنت أقرأ أو أسمع من الاجتماعات الشعبية الضخمة التي كانت تعقدها الجبهة الدمقراطية في المخيمات. كنت أغالب دموعي خوفاً على هذه الجماهير. من مثل هذه الشعارات.

س: شخصية سعيد أبي النحس السلبية، هل كان من الممكن ان يرسمها شخص آخر من خارج الحزب الشيوعي؟

جـ: أعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لله!!!

نادم لأنني تخلّيت عن سرايا

س: «سرايا بنت الغول» هي رواية ندم، اعادة نظر للوراء ورواية محاسبة للنفس في وقت متأخر، ماذا يعني هذا على المستوى الشخصي، السياسي والايديولوجي؟

جـ: لقد وجدت أنني حاولت إعادة النظر منذ ان كتبت رواية «إخطية» في جملة عابرة حتى أنا نفسي لم أنتبه إليها في ذلك الوقت، وهي حين تحدثت من وجودنا في نفق ومن ظهور بصيص من ضوء في آخر النفق، ثم مشينا إلى آخر النفق على أمل أن يقودنا بصيص الضوء إلى مخرج من النفق، فوجدنا النفق مسدوداً في نهايته، فتساءلت: ربما نكون قد اجتزنا كوة جاء منها بصيص الضوء؟! كانت جملة عابرة، وهذه الجملة طورتها في رواية «سرايا بنت الغول». مشينا إلى الأمام كثيراً، وحسبنا ان آخر النفق هو نهاية النفق والمخرج من النفق، ويبدو أننا تجاوزنا مخرج النفق دون أن نحس بذلك. كنت دائماً أقول إن من الصعب على أي انسان أن يشعر بالندم، لأن الشخص يندم إذا كان من الممكن له أن يعيد حياته من جديد. لكن هذا لا يعني أنني لم أندم على عدد من الامور، وهذا ظهر في رواية «سرايا بنت الغول». لقد دخلت الحركة الشيوعية ليس من طريق الصراع الطبقي، إنما، وهذا هو الأمر المدهش، من طريق حبي للإبداع الأدبي، وقيّض لي أن أعمل في بداية حياتي العملية «عطشجي»، مساعد لسائق قاطرة بخارية. كانت شغلتي أن أعبئ الفحم في وجار النار حتى لا تنطفئ، ويستمر البخار في الخروج من الماء، وكان قائد القاطرة شاباً شيوعياً، في الحزب الشيوعي السري في ذلك الوقت. كان هذا عام 1939 أو 1940، وكنت أشتغل، وأتعلم الهندسة البترولية بالمراسلة في جامعة لندن، وكان عملي المشاركة في بناء مصفاة البترول في حيفا، اشتغلت في بنائها ثم عملت فيها. كنا نجلب الصخور من عتليت إلى شاطئ حيفا، حيث كانت تُبنى المصفاة وأبراج التبريد، أما هو، سائق القاطرة، واسمه صادق جراح، فقد كان يستميلني ويعاملني باحترام، ففتحت له قلبي، وقلت له انني أكتب القصة، فشجعني قائلاً: إذا دخلت الحزب الشيوعي ننشر لك القصص، فدخلت الحزب. لذلك فأنا حملت البطيختين معاً، وكان ذلك خطأ. لقد أوهمت نفسي بأنني أحمل بطيختين بيد واحدة، بطيخة الانتساب السياسي، وبطيخة الإبداع الأدبي، مع أن أجدادنا

علمونا أنه لا يستطيع الإنسان أن يحمل بطيختين بيد واحدة. وفي النهاية وجدت أنه لا يمكن ذلك، وأن هناك فرقاً كبيراً بين العمل السياسي القيادي وبين الإبداع الأدبي. الفرق في الأساس هو أنه في السياسة لا يمكن ان تعمل بما أسميه صدق الطفولة. أما في الأدب فلا يمكن أن يستحق العمل هذا الإسم إلا إذا التزمت بصدق الطفولة، بالعكس تماماً. انا لا أتحدث عن سياسة شيوعية أو يسارية، كل السياسات فيها نوع من الميكيافيلية. لا يمكن غير ذلك. القائد النزيه والصادق مصيره، مصير سلام عادل.. ومصير عبد الخالق محجوب.

س: هل كنت سترمي البطيخة لو بدأت من الأول؟

ج: نعم.. إذا كان لدي ندم، فهذا هو الندم. وأعتقد أنني كنت أستطيع أن أخدم قضية شعبي العادلة أكثر مما خدمتها، وخدمتها، لو اكتفيت بالعمل الأدبي.. أنا في بعض الأحيان أتشاطر وأقول ما قاله الخليل إبن أحمد: «ولولا الشعر بالشعراء يزري / لكنت اليوم أشعر من لبيد». ليس في مجال الشعر طبعاً، ولكن لا شطارة هنا.. بعد ما عزّل البيدر!!!

س: هل هذه نصيحة للأدباء؟!

ج: نعم، هي نصيحة، وأنا أقول من هي «سرايا»؟ من هو «الغول»؟

سرايا هي الصدق، الصدق الذي يولد مع كل طفل، و«الغول» الذي سرق «سرايا» هو الميكيافيلية في السياسة. ومما لا شك فيه أن آخرين لم يتخلوا من سراياهم.. هذه هي الحقيقة، فلماذا أنكرها؟! حسن البحيري الحيفاوي، الذي يعيش الآن في سورية، لم يتخل من سراياه، وحقه علي أن أقول إنه أشرف مني. أنا خلقت لأمر آخر. لقد مررت على صحراء في أثناء عملي السياسي. أنا لا أعتبر أن كل المبادئ «صحراء».. لا، لكن في مرحلة طويلة من حياتي لم أستطع أن أتابع منجزات الأدب العربي والعالمي، واكتفيت بالكلاسيكيات العربية والعالمية.. مررت بصحراء.. وأنا أنصح الكتاب أن لا يدخلوا أي قفص حتى يحافظوا على صدق الطفولة.. ألا يدخلوا أي قفص.. هذه هي رسالتي في رواية «سرايا بنت الغول».

س: باستثناء قفص الزواج طبعاً.

ج: بعض الناس يعتقدون أن قفص الزواج هو قفص أيضاً.

س: لو أتيح لك فرح العودة إلى البدايات .. هل كنت ستختار الطريق ذاته؟

ج: أريد أن أقول لكم، وهذا سمعته من آخرين، وليس مني فقط، وهو أنه من المدهش ومن المؤلم أن تجربة الحياة تُعطى للإنسان مرة واحدة.. وأنتم تسألونني كما لو أنني سأعطى الحياة مرة أخرى؟! لأنه بعد تجربتي، لو عدت إلى البدايات مع تجربتي لاخترت، بالطبع، طريقاً آخر. لكن لو أعدتني طفلاً مع ظروف شعبي كما كانت، فأعتقد أنه لا يكون أمامي إلا العمل في السياسة. في هذه المناسبة أحب أن أقول: أنا لا أحمل آحداً «جميلة».. ودائماً كنت أقنع نفسي، وبحق، أنه لا يحق لي أن أحمّل أحداً «جميلة». لأنه بماذا ضحّيت؟! ضحيت بملكة الكتابة الأدبية؟! وبالمقارنة مع عشرات الألوف، وربما مئات الألوف، من أبناء وبنات شعبي الذين ضحّوا بحياتهم في الكفاح من أجل قضية شعبهم، فإن تضحيتي لا تستحق الذكر .. ما هي التضحية التي ضحيتها؟!

أنا مانعة الصواعق

س: عودة إلى «سعيد أبي النحس» التي ليست رواية تقليدية، بمعنى أنها ليست الحبكة، والنفس الروائي بقدر ما هي استخلاص ذكي للتراث، هل ترى ذلك؟

ج: هنا، أيضاً، العديد من النقّاد طلب منّي ألا أجيب على هذا السؤال.. لأن هذه مهمة الناقد كما يقولون، ومع ذلك، مستفيداً من أجوبتي، فإن لي مساهمة في هذا الجواب، وضعنا، خصوصاً في داخل إسرائيل، هو وضع ما كان من الممكن أن تتحمل الحياة فيه، دون متنفس السخرية. بعض السياسيين اتهمني، أنني بهذه السخرية، أقوم بالعمل الذي يقوم به صمام الأمان.. يعني أنني أنفّس خزان البخار حتى لا ينفجر، ويتهمونني أنني بكتاباتي أمنع الإنفجار الشعبي. أنا غير موافق على هذا الكلام وإذا أردت أن أشبّه السخرية عندي فأشبهها بمانعة الصواعق. أنا أردت أن أمنع الصاعقة من أن تحرق شعبي. من دون السخرية كان يمكن لشعبي أن يحترق. وقد لاحظت، ومنذ وقت طويل، جنساً في الأدب العربي لم يستطع الطغاة أن يزيلوه، هذا الجنس هو السخرية. الطغاة، على مر العصور، استطاعوا أن يزيلوا أعمالاً أدبية كثيرة. أما جنس السخرية فاستطاع أن يعيش، وأن يتلافى كل محاولات الإحراق. وأنا أتحدث عن الكلاسيك. يعني مثلاً كتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه الأندلسي، يتكون من قصص رزينة وأخرى ساخرة. وقد لاحظت، عدة مرات، أن الكاتب (بوكاشيو) كتب رواية «دكاميرون» على المنوال نفسه، ربما يكون قرأ «العقد الفريد». كتابات الجاحظ أيضاً سخرية لاذعة. «المقامات» سخرية لاذعة. «ألف ليلة وليلة» مستوى رفيع من السخرية. فإن

تراث السخرية قديم ومتواصل ولم يتوقف. لقد بقي حياً، وهو سلاح ماض ومباشر، وقد يكون أقوى من الشعر. هناك مثل على قوة سلاح السخرية بالمثل المشهور عندنا، فلسطينياً: «حسبنا الباشا باشا اتاري الباشا زلمة». كل نظام الدولة يوهمك أن الباشا/ الحاكم/ يختلف عن بقية الناس. فنأتي نحن أصحاب سلاح السخرية ونثبت أن الباشا مجردُ زلمة.

س: هل هناك أصل واقعي لشخصية سعيد أبي النحس المتشائل؟

جـ: كنت أكذب وأقول في الماضي إن شخصية سعيد أبي النحس هي عكس شخصيتي. ولكنني الآن في عمر لم أعد فيه بحاجة إلى الكذب. لقد كنت أتحدث في «المتشائل»، إلى حد كبير، عن نفسي. أتحدث عن نفسي بمعنى العقلانية. وعقلانيته هي عقلانيتي إلى حد ما. وقد كنت حتى في قيادة الحزب أحاول أن أمنع أية مغامرة بأعضاء الحزب وبالشعب كله. ربما أكون أول من نجح في وقف خطتنا الكبير والأساسي، وهو أننا عادينا كل من وجد عملاً ليعتاش منه في إطار المؤسسة الإسرائيلية الحاكمة.

س: في العديد من رواياتك نلاحظ اهتمامك الشديد بالإيقاع والموسيقى داخل النص. فهل كنت تعي هذه الميزة، وما هي جذورها؟

جـ: نبهني إلى هذا الأمر الدكتور عبد الرحمن ياغي. كتب مقالاً عن «إخطية» تساءل فيه أين هي المتعة في هذه الرواية؟. فالقصة تحتاج إلى متعة تقدم إلى القارئ، والمتعة تكون عادة في الحبكة. فتساءل أين هي المتعة، وقال: المتعة هي في اللغة، وجرؤ أن يكتب: خذوا الشعر من إميل حبيبي. طبعاً هذا القول أهاج الكثيرين ضدي. أنا لست شاعراً، ولا أفهم الشعر الا اذا ألقي إلقاءً أمامي. لكن، أنا أحببت اللغة ورأيت أن اللغة العربية تتميز بأنها - لأسباب مختلفة - تحمل في طياتها أنواعاً عدة من الفنون، بما فيها الرسم والتمثيل. وقد تدهشون اذ أقول لكم إنني سُحرت بلغة كاتبين مصريين على طرفي نقيض: بكتابة طه حسين في «على هامش السيرة» و مصطفى صادق الرافعي في مقالاته. الرافعي لديه انفجارات لغوية أحببتها جداً، تأثرت بها.

أنا أعبد اللغة العربية

س: هل أحببتهما في الفترة نفسها من عمرك؟

ج: طبعاً، الرافعي لم يقنعني، ولكني كنت أقرأه بلذة، وأحب أن أقول ان المفاجآت اللغوية عند الرافعي كانت تثيرني، كنت أشعر بمتعة، بالطبع، تعلّمت من طه حسين الدقة في استعمال اللغة، خصوصاً في أحرف الجر.

س: هل تكتب بشكل عفوي أم بشكل مخطط؟

ج: أنا أكتب العمل الأدبي عفو الخاطر، حينما أستطيع أن أطلق العقل الباطني من عقاله، لكن بعد ذلك أنا ألتجئ إلى ما سميناه حرفة الأدب: تعرفون أن أجدادنا كانوا يحزنون على ذلك الذي ركبته حرفة الأدب، فأنا اعيد كتابة الفصل الواحد ثلاث مرات وأحياناً أكثر، وبعد أن أنتهي من القصة اعيد كتابتها من جديد، وحينها أنا ألتجئ إلى القاموس، ليس فقط إلى القاموس وإنما إلى مجلد كبير عندي أمامي في مكتبي اسمه «فقه اللغة»، وجدت أن اللغة العربية في عزها كانت دقيقة في وصف كل حركة من حركات الانسان، فلكل سنة من سني حياة الانسان يوجد إسم، وكذلك الحال مع الحيوانات، هذه الأمور ضاعت علينا، لقد وصلت عندنا دقة اللغة مثلما وصلت إليه في اللغات الأوروبية، وربما اللغات الأوروبية أخذت عنها هذه الدقة، في موسوعة «فقه اللغة» أبحث عن إسم الآلة، أبحث عن إسم للولد في عمر معين، أحاول أن أسترجع الدقة في اللغة العربية، وأحياناً أجد نفسي أسخر من التعابير المتداولة، لكن أهم من كل شيء: أنا أعبد اللغة العربية ربما عبادة، أحبها! قد لا أتميز بهذا عن غيري.. ولكني أتميز عن غيري، عن العديد من الكتّاب، بأنني لا أذهب بمخطوطتي إلى المطبعة، إلاّ بعد أن أتأكد من صدق اللغة، ولأننا نعيش في مجتمع يلوث لغتنا، فحين أشعر أنني مستعد لكتابة عمل أدبي، أعود الى قراءة بعض الكلاسيكيات وعلى رأسها «القرآن الكريم».

س: هل كان هذا جزءاً من حرب البقاء؟ هل كان الحرص على اللغة نوعاً من الحرب؟

ج: مما لا شك فيه، لكن أكثر من ذلك فأنا أعتقد أنني ألتجئ إلى إحياء المكان الفلسطيني وأصفه، وأتوسّع في وصفه، من أجل البقاء.

س: ماذا تجد في القرآن؟

ج: في اعتقادي، وفي اعتقاد غيري أيضاً، إن القرآن هو أساس اللغة العربية، وأساس أسلوب

اللغة العربية، بالطبع مع الفارق الكبير، وأؤكد على الفارق الكبير، هكذا يتحدثون في بريطانيا مثلاً من اللغة الإنجليزية، عن تشوسر وعن شكسبير. القرآن أولاً وحّد اللغة العربية وحافظ عليها في مفهوم معين لغة حية. بالاضافة إلى القرآن أنا أعود، عادة، إلى قراءة فصول من «العقد الفريد». أعتقد أن هذا الكتاب وصل إلى أعلى مستويات الحداثة في أسلوب اللغة. ومن أجل تطوير خيالي أنا أعود وأقرأ «ألف ليلة وليلة». وجدت أنني كل عشر سنوات، تقريباً، أعود إلى قراءة «ألف ليلة وليلة».

كنفاني أخطأ الاتجاه

س: إبراهيم ابو لغد ذهب إلى يافا ودلّ الاطفال العرب على أسماء الشوارع العربية القديمة، قبل عام 1948. لقد كانت لهم مدينة أخرى «تحت» المدينة العبرية، فكيف واجهت مشكلة الطبقات هذه في أدبك؟

ج: سؤالك يذكرني بتعليقات نقاد عبريين، فعندما ترجمت رواياتي إلى اللغة العبرية كانوا يكتبون أنني أعرّفهم على حيفا التي لا يعرفونها. أعرّفهم على عكا التي لا يعرفونها. القرى التي هدمت وزالت لا يعرفونها. إما أنهم لا يريدون أن يعرفوها أو يمتنعون عن معرفتها، وكانوا يشعرون أنه من الصعب عليهم أن يدافعوا عن أنفسهم في مواجهة كتاباتي. الآن في قضية المكان: أنا أستغل، بعمق، وبألم، واقع أنني أستطيع أن أزور المكان، فيما إخوتي وزملائي في المنفى لا يستطيعون ذلك. أنا تعلمت، بمفاجأة مؤلمة، من رواية غسان كنفاني «عائد إلى حيفا» شيئاً عن المكان. في هذه الرواية يصف غسان حيفا والشوارع والاحياء، التي قطعها أهل المدينة في هروبهم عبر البحر. ولا أذكر إن كان غسان رحمه الله عاش في حيفا أم لا. لكن مع ذلك، أنا حاولت أن أمشي مع غسان الطرق التي وصفها وجعلها الطرق التي انتقل عبرها اللاجئون الفلسطينيون في حيفا إلى شاطئ البحر. ووجدته، أحياناً، بدل أن ينزل بهم إلى البحر يصعد بهم إلى الجبل.

أوصيت أن يُكتب على قبري: «باقٍ في حيفا»

س: ربما أخذ الرواية من آخرين، فقد حصلت الهجرة وهو صغير..؟

ج: ربما، لا أعرف. قيل إن القاهرة تغيّرت منذ «ثلاثية» نجيب محفوظ، ومع ذلك حين يدرس

الباحثون القاهرة في زمن نجيب محفوظ، يعودون إلى كتاباته متأكدين أنها تصف القاهرة كما كانت، وأنا أحلم أن من يريد أن يراجع حيفا، أو عكا، أو حتى يافا، قبل عام 1948، يستطيع أن يعتمد على كتاباتي. مرة أخرى أقول لكم: هذا أستطيعه أنا بفضل أنني بقيت، وبعد عمر طويل، تركت من ورائي وصية أن يُكتب على قبري فقط جملة واحدة: «باقٍ في حيفا»، وأن أدفن في حيفا.

س: إذن، فقد كان هاجس المكان هاجساً مركزيا في رؤيتك؟

جـ نعم، كان هاجساً من هواجسي، لأنني جُرحت كثيراً من قبل العديد من زملائي في الخارج. أنا بهذا أقول لهم إنني استطيع أن أزور المكان، بالطبع هذا المكان، كما قلت في روايتي «سرايا بنت الغول»، وصفت زياراتي له كما قيل عن السيد المسيح، إنه سار في درب الآلام - «فيا دولوروسا». في أثناء تصوير الفيلم عن حياتي رحنا الى شارع وادي النسناس حيث ولدت، وكتبت عن هذا الأمر قصة «النورية»، طبعاً كل واحد يحلم أن يبقى أثره بعد رحيله. فوجدت البيت الذي سكنت فيه أصبح ملحمة.. طزْ يللالي. على كل حال يظهر أن هذا هو الذي نستحقه.

س: هناك متعة شديدة باستعادة الاماكن والقرى في رواية «المتشائل».

جـ أردت بذلك ان أبرز هنا مدى الخسارة .. هذا أكثر ما أزعج الاسرائيليين.

ما حاجتهم إلى قانون إعدام؟!

س: هل الانفاق التي مشى بها «سعيد المتشائل» كانت إشارة تاريخية أم وصفاً لمرحلة؟

جـ : هذه الأنفاق موجودة حتى الآن. أردت أن اقدم للقارئ، بالإضافة إلى المتعة الأدبية الفنية، أحاول أن أقدم له بعض المعلومات، معلومات تاريخية. هذا ما جعلني أدخل معلومات تاريخية مثل قضية الصليبيين. في الانفاق أردت أن أبرز شيئاً وهو أن الصليبيين كانوا يذبحون المسلمين في المساجد، وفي بيوتهم. أما الإسرائيليون فليس بهم حاجة الى الدخول إلى البيوت والمساجد، لأننا نحن نخرج اليهم فيقتلوننا في الخارج. في إسرائيل يقولون، بحق، أنه لا يوجد قانون إعدام! ما حاجتهم إلى قانون إعدام إذا كانوا يعدمون الناس بلا قانون. أنا أحاول دائماً أن أرد رداً إنسانياً على حجج الصهيونية.

س: هل تستند إلى الذاكرة كأساس في عملك الإبداعي؟

ج: أقول لكم، إنني وجدت في لقاء نشر مؤخراً في الصحف العبرية مع غابرييل غارسيا ماركيز قولاً له، إنه في هذا السن فإن منبع وخزان أعماله الأدبية هو ذكرياته. أنا لم أفطن إلى هذا الأمر مع أن هذا هو واقعي أيضاً. ماذا نستطيع أن نقدم سوى الذكريات؟!

قرأت لجبرا 15 سطراً فقط

فكل ما امتد بي العمر أعود إلى الذكريات، أكثر فأكثر. والمدهش في الأمر أن الواحد منا كلما كبر في السن، ويبدأ في نسيان ما حدث بالأمس يبدأ أيضاً في تذكر أيام طفولته ومطلع شبابه. بالطبع، أنا أعتمد على بعض الوقائع، لكن سرعان ما أنتقل إلى الفانتازيا، إما خوفاً من تأثير هذه الوقائع، إما هروباً من نتائجها المؤلمة، وإما تأثراً بالفانتازيا التراثية العربية. لو قيض لأحد منكم ان يقرأ تاريخ «المسعودي»، أو «ابن بطوطة»، لدهش حقاً. أما «ابن خلدون» فلم أقرأ من كتابه أكثر من المقدمة لأنه جاف، ولكن جميل جداً، ولكنه خال من الفانتازيا. أنا لا أقرأ المواد الطويلة والجافة. لم أقرأ «رأس المال» لماركس، ولم أقرأ رواية «الحرب والسلام» لتولستوي، رغم أنني كنت أحملها معي عندما كنت أسافر للإستجمام في الخارج. لم أتم قراءتها ولا مرة. وبالطبع، ومع كل الإحترام، لم أستطع أن أقرأ أكثر من 15 سطراً من بدايات روايات جبرا إبراهيم جبرا. هناك كاتب وكان صديقي، يوسف السباعي، كتب رواية تزيد عن 500 صفحة، وكتب لها مقدمة يتباهى فيها أنه كتبها في أقل من عشرين يوماً وهو جالس على البلاج. فقلت له إنني لن اقرأ هذه الرواية. ثم أنا أجرؤ عن التحدث عمّن لم أقرأ لهم من المتوفين أما من الأحياء، فلا أجرؤ.

س: قضيت العمر وأنت تحمل بطيختين في يد واحدة، أسقطت واحدة، وبقيت الأخرى. هل أسقطتها عمداً؟؟

ج: لا، أسقطوها من يدي. ماذا تريد أكثر من ذلك. أنا صحيح، في نهاية الأمر شعرت أن علي أن أحطم إحدى البطيختين. ففضلت «مكره اخوك لا بطل» أن أحتفظ ببطيخة العمل الادبي. ولكن عليكم أن تسألوني: ومع ذلك نراك مشغولاً بالسياسة. عليكم أن تسألوني هذا السؤال.

س: ها نحن نسألك: نراك مشغولاً بالسياسة؟!

ج: هذا صحيح لسببين: السبب الأول أنني لا أستطيع أن أتخلص من ماضيّ السياسي الطويل. والسبب الأساسي، الثاني، هو أني أقنع نفسي أنني أعالج سياسة طالما حلمت بها، وأشعر بمسؤوليتي الشخصية عن مستقبل هذه السياسة. يعني لما جاءت السياسة التي حلمت بها، أتخلى عنها ؟! أنا مش عارف!! أنا عموماً لا ألتجيء إلى العمل الأدبي إلا حين أشعر بالإختناق. يعني أكاد أن أغرق في مستنقع السياسة. أشبه بذبابة في بيت عنكبوت. فلا أجد مخرجاً إلا بالإلتجاء إلى خشبة النجاة الأدبية. يعني أنني لا أكتب بقرار ذاتي، أو بقرار خارجي وإنما أكتب حين أشعر أنني لا أستطيع مواصلة الحياة بدون هذه الكتابة الأدبية. وعدت قرائي أن لا أتقاعد إلا بعد أن أكتب لهم رواية ثالثة عن بلدي ومسقط رأسي (حيفا). قدّمت لهم روايتين: «إخطية» و«سرايا بنت الغول». الآن، أنا أحلم بأن أكتب الرواية الثالثة عنها بعد «إخطية» و«سرايا». في أثناء الأسئلة التي وجهت إليّ في الفيلم الذي يصور عني، فجأة تذكرت حادثاً أيام طفولتي. كنا نستيقظ مع الفجر وننزل من شارع عباس، حيث كنت أسكن، إلى البحر. وكانت الوالدة تلف لي «عروسة» مع لبنة أو زيت وملح. كنا نستيقظ مع الفجر ونذهب لنسبح وفي الطريق نمر على الموارس، ونوكل خيار أو نوكل بطيخ، أو نستبطخ، ونرجع ونلبس ونروح على المدرسة. في يوم من الأيام، نزلنا قبيل الفجر، نزلنا وكانت عتمة. سبحنا وكانت عتمة، وعندما عدنا كانت ما تزال عتمة. فقلت لأمي: ملاذا يحدث؟! قالت أمي: إنكم طلعتم للبحر في الفجر الكاذب. هناك فجر كاذب. يوجد شيء من هذا النوع. أنا عندما أذهب لصيد السمك أطلع مساءً في القارب، نطلع في السادسة مساءً ونعود في السادسة صباحاً. ففي لحظات حوالي الساعة الثالثة صباحاً تعتقد أنه الفجر. يوجد حالة إسمها «الفجر الكاذب». ويمكن أن أسمّي روايتي الثالثة بهذا الإسم.

س: لكن، هناك كتاب لنجيب محفوظ بهذا الإسم؟

ج: صحيح؟ متى كتبه؟ بعد أن حصل على جائزة «نوبل»؟ لم أقرأ له منذ ذلك الوقت.

س: نعم.

ج: إذن فلن أستطيع أن أسمّي كتابي باسم «الفجر الكاذب».

«المتشائل» رواية البقاء

س: هل هناك أدب روائي فلسطيني بالمعنى الحقيقي والدقيق. يقال أن الكثير من الكتّاب الفلسطينيين استندوا إلى قضيتهم أكثر مما استندوا إلى موهبتهم. كيف ترى إلى مثل هذه المقولة؟!

ج: مثلما نقول: «لا دخان بلا نار» ومما لا شك فيه أن بعض الكتّاب استغلوا هالة القضية الفلسطينية حتى يسمح لهم النقاد بالاعتراف بأعمالهم الأدبية مع أنه أحياناً لا يستحق هذا الإسم. أنا أحلم، وغيري، بأن تحل القضية الفلسطينية حتى يخرج الكاتب المبدع إلى الناس «بزّق ربه» ويحاسب على عمله الأدبي. ومع ذلك يوجد كتّاب لا شك فيهم، ويستحقون هذه الصفة. إنهم مبدعون، بالقضية الفلسطينية وبحل القضية الفلسطينية بحق ذواتهم. وعلى رأس هؤلاء غسان كنفاني. فغسان كنفاني سبقني إلى عرض مقولة أنه فليس لنا سوى أنفسنا، حتى ولو لم يكن في طاقتنا سوى أيدينا لنضرب بها جدران الخزان، وأن نصرخ إلى أن يسمعنا العالم. روايته «رجال في الشمس» هي إبداع وتستحق كل تكريم واحترام. وأنا استشهدت دائماً برواية غسان كنفاني «رجال في الشمس» لأقول ما يلي: كان على كنفاني أن يمر بالمنافي العربية بعشر سنين حتى يدرك هذه الحقيقة: أنه إذا لم نضرب بأيدينا على جدران الخزان ونصرخ بأصواتنا حتى يسمعنا العالم، فإننا سنحترق ونموت. أما نحن في داخل إسرائيل فلم نعط أية لحظة من وهم أو من هدوء، بل كان علينا، منذ اللحظة الأولى، أن نضرب جدران خزاننا ونصرخ، من اليوم الأول لم يكن لدينا أي بديل من أن نضرب جدران الخزان بأيدينا وأن نصرخ بأصواتنا.

س: «رجال في الشمس» بمعنى ما كانت رواية المنفى، و«سعيد أبو النحس»، كانت رواية البقاء، هل توافق على ذلك؟

ج: نعم، جميل، هذه هي أول مرة أسمع مثل هذا التعبير، وأنا أوافق عليه.

جائزة فلسطين وجائزة اسرائيل

س: أنت الوحيد الذي حمل «جائزة إسرائيل» و«جائزة فلسطين» في آن واحد، كيف أمكن حصول ذلك؟!

ج: أنا أحمل المجد من طرفيه. طبعاً هذا ليس جواباً، أحياناً اضطر إلى هذا الجواب. يقول الشاعر: «الفضل ما شهدت به الأعداء». لكن ليست هذه هي القضية. القضية هي، والتي لا يعرفها العديد من الزملاء في الخارج، اننا داخل إسرائيل نحتاج إلى كل منبر وإلى كل إنجاز مهما كان طفيفاً. الكثير لا يعلم، مثلاً، أننا نظمنا مظاهرات واصطدامات، وذهب العشرات منا إلى السجون وقتلوا في المعارك من أجل أن نحظى بالهوية الإسرائيلية أو الجنسية الاسرائيلية. هكذا كان وضعنا، حينما كنا منسيين من العالم العربي، وحتى من إخوتنا وإخواننا. أمضينا فترة طويلة من حياتنا داخل إسرائيل في معركة طويلة من أجل الجنسية الإسرائيلية .. تصوروا «مدى الخيانة» التي اضطررنا اليها !!

وهنا أنا أشبّه وضعنا بوضع الموريسكوس (أي مسلمي إسبانيا بعد هزيمة العرب المسلمين). أنا أقرأ الكثير من كتاباتهم. لقد خيّرَ هؤلاء بين أن يرحلوا أو أن يتنصروا. الاكثرية الساحقة منهم تنصرت .. طبعاً كان هذا شكلاً. ومع ذلك فإن الحكام الاسبانيين لم يصدقوا انهم تنصروا، فمنعوهم من إغلاق أبواب بيوتهم حتى لا يصلّوا في داخل بيوتهم. وفي النهاية طردوهم. ومنذ كتاب كتبه أحدهم باللغة العربية الموريسكية. شيء «مدهش»!! الكتاب يتحدث عن رحيلهم إلى المغرب، وكيف حاولوا أن يبرروا ما فعلوه، بما أنهم مائلون إلى بلاد الإسلام وخوفاً من أن يشكّوا بهم دافعوا عن أنفسهم بأن تنصرهم كان ظاهرياً فقط. ومع ذلك وحتى اليوم، فإنهم في المغرب يشكّون في دينهم ويسمّونهم «الأندلسيين» وهم، أيضاً، يترفعون على أهل المغرب ويحافظون على تقاليدهم. بل أن بعضهم قال لي إنه يشعر أن وطنه هو إسبانيا.

نحن لم نغير ديننا، ولم نخف أعلامنا، وحافظنا على لغتنا ـ ليس شطارة منا ولكن التاريخ تغير. العالم الذي نعيشه يختلف عن الوقت الذي استطاع فيه الإستعمار الفرنسي في الجزائر مثلاً أن يمنع الجزائريين من التكلم باللغة العربية.

س: نحن نتذكر دائماً صرختك المدوية: هذا هو وطننا الذي ليس لنا وطن سواه.

ج: نحن بقينا في وطننا كما قلت في رواية «إخطية» على لسان «إخطية»: إنه لو وجدتم من يحبكم غيري لما بقيتم في بلادكم. فنحن تعلّمنا من مأساة المنفى. وهنا، أنا أود أن أشهد للمرحوم «أبو إياد» على مذكراته التي نشرها له أريك رولو في كتابه «فلسطيني بلا هوية»، حيث عرّفنا على مأساة الفلسطينيين في المنافي العربية حتى العمق. لذلك تجد العرب في إسرائيل، عموماً، يقولون للإسرائيليين إنه حتى لو جئتم بالبلدوزرات لطردنا إلى أي وطن عربي فلن تنقلونا الا جثثاً هامدة. بفضل الصمود بقينا في بلادنا وليس بفضل مستوى الدمقراطية في إسرائيل، بل بسبب

مستوى الدمقراطية المتدني في العالم العربي.

س: السلطة الوطنية الفلسطينية. كيف تنظر إلى إيقاع حركة السلطة بعد عامين على أرض الوطن؟

ج: أنا غير موافق على النظرية القائلة بأن القضية هي قضية اداء السلطة.. لا يا عمّي.. لا تزال القضية هي قضية إسرائيل، قضية الإحتلال والعدوان، أكثر من مرة قلت وما أنا أؤكد على ذلك: ياسر عرفات حتى الآن وعلى الرغم من كل شيء لا يمثل السجان، إنما رابين ثم بيرس هما اللذان يمثلان السجّان. ياسر عرفات مازال يمثل السجين، وأنا من طبيعتي الإنسانية لا أستطيع أن ألوم الضحية، ولا تزالون الضحية، وفي روايتي المنسية «لكع بن لكع» كنت أصرخ في جملة بعد الأخرى: لا تلوموا الضحية.

هذه هي الحقيقة.. ربما يكون هنالك تصرفات خاطئة أو اداء خاطئ، ولكن السبب هو الممارسات الاسرائيلية.. السجان هو اسرائيل.. وليس الفلسطينيين. أنا أؤيد أوسلو وأشعر انني مرتبط بهذا الحل. قيّض لي أن أكون الشخص في «عصبة التحرر الوطني» الذي طلب مني ان ألقي تقريراً في اجتماع اللجنة المركزية الخاص نهاية عام 47، دعونا فيه شعبنا إلى الموافقة على قرار التقسيم. أنا أعتز بهذا الموقف، والمسؤول عن عدم موافقة شعبنا على قرار التقسيم، عن مأساتنا في ذلك الوقت، هو الجامعة العربية.. والمسؤول الأساسي هو الإحتلالات الإسرائيلية التي حشرتنا من أجل عدم القبول بقرار التقسيم.. وإسرائيل تقوم بهذا الدور الآن لتمنعنا من القبول باتفاق أوسلو.. إسرائيل لم تعطنا الوقت ولا الفرصة.. إسرائيل ارتكبت مجازر كثيرة عام 48 حتى لا نُعطى الفرصة لنقبل بقرار التقسيم. أذكر أنه بعد اتخاذ قرار التقسيم، ودعوتنا إلى قبوله، قمنا بزيارات إلى العديد من القرى، منها قرى الخليل، وجاء المخاتير والوجهاء واستقبلونا وقلنا لهم: إبقوا في بلادكم، حتى ولو ذبحوكم. ولكن اسرائيل طردت جميع المواطنين من بلادهم. شعبنا لم يترك بإرادته، شعبنا طُرِد من بلاده، ليس على اللاجئين ولا على أبنائهم أن يشعروا بمسؤولية الهرب من أوطانهم. إسرائيل هي المسؤولة.. هم طُردوا طرداً. لذلك أنا حينما أتحدث عن تجربة جيلي فإنني أقصد هذه الأمور، مررنا على هذه المأساة نفسها، أنا وجيلي رأينا هذه المأساة وعليكم أن لا تكرروها..

إميل شكري حبيبي

(سيرته الذاتية)

● إميل شكري حبيبي، من مواليد مدينة حيفا في العام 1921 (في 29 آب، تاريخ غير مؤكد)، سليل عائلة عربية مسيحية هاجرت من بلدة شفاعمرو التي تبعد من حيفا 22 كم. كان والده مختار الطائفة في شفاعمرو وفي حيفا فيما بعد. وكان أول معلم لمدرسة .C.M.S الإرسالية في بلدته.

● أتمّ دراسته الثانوية في حيفا وعكا، ونال شهادة الإجتياز في 1939، ثم عمل في مصانع تكرير البترول في حيفا. وفي الوقت نفسه درس الهندسة البترولية بالمراسلة مع جامعة لندن ولمدة سنتين.

● من 1941 حتى 1943 عمل مذيعاً في القسم العربي لمحطة الإذاعة الفلسطينية ومسؤولاً عن القسم الثقافي. واستقال للتفرغ للعمل السياسي في إطار الحزب الشيوعي الفلسطيني. وكان، في العام 1945، من مؤسسي «عصبة التحرر الوطني في فلسطين». وكان، في العام 1949، العامل الرئيس في تحقيق الوحدة بين الشيوعيين اليهود والعرب في إطار الحزب الشيوعي الإسرائيلي. واستمر، حتى العام 1989، أحد قادته الرئيسيين.

● مثّل حزبه في الكنيست مدة 19 عاماً، من 1952 إلى 1972 - حين استقال من الكنيست ليتفرغ لأعماله الأدبية ولتحرير صحيفة الحزب باللغة العربية، «الإتحاد»، وقد نجح في إصدارها يومياً

منذ العام 1983.

● اضطر، في العام 1989، إلى الإستقالة من جميع مناصبه الحزبية بما فيها منصب رياسة تحرير «الإتحاد»، وفي العام 1991 إستقال من الحزب واعتزل العمل السياسي النشيط.

● ملكة الإبداع الأدبي تجلّت لديه منذ أيام شبابه الأولى. وقصصه القصيرة ظهرت في صحيفة «الإتحاد» التي تأسست في العام 1943، وفي مجلة «المهماز» التي أصدرها في العام 1946، وفي عدد من المجلات الفلسطينية واللبنانية والعراقية والمصرية.

● أصدر 6 روايات ومسرحيات:

(1) «سداسية الأيام الستة» (1968).

(2) «المتشائل» (1972 - 1974).

(3) «لكع بن لكع» (1980).

(4) «إخطية» (1985).

(5) «خرافية سرايا بنت الغول» (1991).

(6) مسرحية «أم الروبابيكا» (1992).

وله «كفرقاسم ـ المجزرة ـ السياسة» ـ تأريخ لمجزرة كفرقاسم (1976).

كما أصدر مجموعة رسائل ومقالات فكرية بعنوان: «نحو عالم بلا أقفاص» (1993).

كما ترك عدة مخطوطات أدبية لم تُنشر بعد وعلى رأسها مسرحية «وأما الأشباح فتمكث في الدار».

إضافة إلى آلاف المقالات الأدبية والفكرية التي لم تجمع حتى الآن.

تُرجمت رواياته ومسرحياته إلى عدة لغات، و«المتشائل» ترجمت إلى أكثر من 15 لغة بما فيها العبرية وعرضت على المسرح باللغتين العربية والعبرية. وأعيد نشرها في أغلب البلدان العربية واستقبلت أعظم استقبال، وجعلته واحداً من أهم الكتاب العصريين الفلسطينيين والعرب.

● إبتدأ، منذ 1989، في التوجه إلى القضايا السياسية من وجهة مستقلة وغير حزبية، ودعا الدوائر التقدمية، في إسرائيل وفي العالم العربي، إلى إعادة النظر في العديد من المسلّمات النظرية والسياسية على ضوء «الزلزال» الذي هزّ الإتحاد السوفييتي السابق وأقطار أوروبا الشرقية.

● ومنذ 1990، وبالإضافة إلى نشاطه الأدبي، رئس مجلس إدارة «دار عربسك للنشر في حيفا» وأولى إهتماماً خاصاً بـ «لجنة المبدعين الإسرائيليين والفلسطينيين ضد الإحتلال ومن أجل السلام وحرية الإبداع» التي إشترك في رياستها مع الكاتب الإسرائيلي (بالعبرية) المعروف يورام كانيوك.

● منذ آب 1995، أسس وأصدر شهرية الأدب الفلسطيني «مشارف» التي تصدر من القدس وحيفا، وتولى رئاسة تحريرها، حتى وفاته.

جوائز وأوسمة:

● خلال «أسبوع الثقافة الفلسطيني»، الذي عقد في القاهرة في كانون الثاني (يناير) 1990، منحته الدائرة الثقافية في دولة فلسطين أعلى وسام أدبي - «جائزة القدس».

● مجلة «المجلة» المرموقة، التي تصدر في لندن، إختارته - في عددها الخاص الصادر في يناير 1992 - أحسن كاتب روائي عربي للعام 1991. وفي الوقت نفسه إعتبرت روايته «خرافية سرايا بنت الغول» أحسن رواية عربية للعام 1991.

● في السابع من أيار 1992 قامت وزارة الثقافة الإسرائيلية بمنح إميل حبيبي جائزة الدولة العليا في الأدب - «جائزة إسرائيل».

● توفي ليلة 1 - 2 أيار في «مستشفى العائلة المقدسة» في الناصرة.

● دفن جثمانه في حيفا في الساعة الخامسة من مساء يوم 1996/5/3، في مقبرة الطائفة البروتستانتية على شاطئ حيفا، وسيكتب على شاهدة قبره، حسب وصيته المكتوبة، «إميل حبيبي: باقٍ في حيفا».

(هذا النص صادر عن مكتب إميل حبيبي، «دار عربسك للنشر» في حيفا، الدار المسؤولة، الأولى والأخيرة، عن مخلفاته الأدبية والسياسية، وذلك حسب وصيته المكتوبة).



رام الله ، 1996/4/13

تصوير : اليانة بدر

محمود درويش

أيها الساحر الساحر من كل شيء

(كلمة الشاعر في حفل تأبين إميل حبيبي)

الآن وأنت مسجّى على صوتك، ونحن من حولك، رجوع الصدى من أقاصيك إليك.

الآن لا نأخذك إلى أي منفى، ولا تأخذنا إلى أي وطن. ففي هذه الأرض من المعاني والجروح ما يجعل الإنسان قديساً منذ لحظة الولادة، وشهيداً حياً مضرجاً بشقائق النعمان من الوريد إلى الوريد.

كان لي موعد معك، هنا في ناصرة البشارة والإشارة، فانتعلت قلبي وحملت هواجسي في يدي: هل أصل هذه المرة إلى جنة الجحيم هذه؟! أم سيعلمني السراب ثانية أن للأرض أرضاً أخرى قريبة منها وبعيدة؟ ولم تكن أنت ذريعة للنداء، كنت العناق البعيد. أما كان في وسعي أن أجد الإثنين، دليلي وسبيلي؟! أم أن المصائر امتلأت على لعبة الحضور والغياب، على إيقاظ القلب من سكرته: لا تحلم بما لا تستحق. فليس هذا اللقاء سوى وداع.

مَن يودع مَن، أيها الساحر الساحر من كل شيء؟ ومن وقفتي هذه بالذات؟ فهأنذا أراك تغمز المشهد بنظرتك الشقية، لا لشيء إلا لأنك تعرف نفسك وتعرفنا واحداً واحداً منذ أقدم القادمين حتى آخر العائدين، وتعرف أن الذات، لا الموضوع، هي ما يجعل المرء يركض من المهد إلى اللحد بحثاً من ذاته التي لا تجد ذاتها، إلا إذا امتلأت بخارجها، وكم كابدت في هذه الرحلة، كم كابدت كي تجد الأدب هناك في تلك المنطقة المتوترة من السؤال. فكنت كما تريد أن تكون وكما لا تريد، وحيداً في زحامك ومزدحماً في وحدتك، ولكن حدود الكون كانت واضحة فيك من غير سوء، هنا على هذه الأرض القديمة الصغيرة يجري الحوار بين الواقعي والخرافي، بين الزمني والروحي، بين النسبي والمطلق، بين الزائل والدائم، بين الحق والباطل، بين الحرب والسلام، وهنا.. هنا البداية وهنا النهاية.

باقٍ في حيفا، حياً وحيا.

باقٍ في حيفا، هو الإسم الذي سمّيت به إسمك. لا لتميز بين صعود الجبل وبين هبوط الجبل، ولا

كي تحدد الفارق بين الباقي في منفى مويته، وبين العائد إلى هوية منفاه، بل لتفعل فعلتك الخاصة بالأسفار، ولتحفر فوق المخطوطات ما لست في حاجة إلى تأكيده، إلا لمواجهة زمن طال فيه الشك شرعية الأم، حين صار في وسع القوة الواثقة من امتلاك الحاضر، أن تضع الماضي على مائدة التساؤل، لتملي عليك روايتها: حجراً في مواجهة بشر.

لم يرتكب شعبك من خطيئة سوى إسم هذه الهوية الذي تحفره في قطعة من رخام وفي الذاكرة الجماعية:

باقٍ حيث ولد في المكان الذي واصل فيه سليقة العلاقة العضوية المستمرة، وبلا قطيعة، بين الأرض وتاريخها ولغتها، وتابع فيه الإصغاء المرهف بخشوع ومحبة إلى كلام السماء إلى الأرض. ليعيش حياته البسيطة قنوعاً بحصته من الماء والهواء والضوء وتبدلّ الفصول والغزوات، لتصبح الأرض التي غابت عنها طبيعتها أرض التعددية والتسامح والسلام.

لقد شاءت طبيعة التطور التاريخي في تقاطع المصائر الإنسانية أن تجعل هذه الأرض المقدسة بلداً لشعبين، بعدما تعرض شعبها الفلسطيني إلى المصير التراجيدي المعاصر وبذل تضحيات تفوق طاقة البشر لتثبيت هويته الوطنية، وحقه في الإستقلال. وكنت أنت منذ البداية وحتى هذه اللحظة، أحد المنابر المتحركة الأقوى والأعلى، الداعية إلى سلام الشعوب بحق الشعوب، السلام القائم على العدل والمساواة ونفي إحتكار الله والأرض، للوصول إلى المصالحة التاريخية الحقيقية بين الشعبين، مع قيام الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس.

والآن وأنت مسجّى على هذا المفترق، على لون هذا الغسق الداكن مدمى بالأمل وبخيبة الأمل، باليقين وبالشك معاً. فإن أكثر من جيل واحد من الباقين هنا يعبر عن دينه لك، للطريقة التي حللت بها جدلية التوتر الوجودي والثقافي بين الجنسية والهوية، بطريقة وحيدة هي البقاء والدفاع عن حقهم في المساواة، وإمداد عناصر الهوية بمكوناتها الثقافية، الوطنية والقومية التي لا وجود لهم بدونها.

فطوبى لك أيها المعلم الذي جعل الحنين فاكهة، وسيّج الحيرة بزهرة القندول.

كم أنت يا حبيبي، كم فيك من تناقض هو أحد مرايا تناقضاتنا التي تكسر اللغة من فرط نزوع المأساة إلى ارتداء قناع الملهاة. في كل واحد منّا واحد منك ونحن جميعاً فيك. وفي كل لحظة من زماننا أكثر من تاريخ يتبدّل قبل أن يمنحنا فرصة للتكيّف أو فرصة للتذكّر. تاريخ ينقض علينا كقطار عشوائي. فماذا تفعل في انتحار الرحمة؟ لم تكن السخرية خيارك الأدبي بقدر ما كانت حجتك في وجه هذا العبث، وطريقة في اختيار برج للرصد، ونقطة للوقوف على قدم المساواة مع الخصم ومع القدر معاً.

إذا كنّا نلعب، فتلك هي شروط اللعبة، لساناً بلسان، لا طائرة ضد طائر. وفي هذه المنطقة أيضاً

يتبطّن المعنى معنى ثانياً. ويلجأ الفرد إلى ذاته ساخراً من عبء رسالتها فيخف الحمل الثقيل من أجل الإنتقال إلى حمل أثقل. في صحراء الإيقاع الذي لا يتوتر إلا لينسجم بين السياسي والأدبي. لا لن تستطيع العودة إلى الوراء لإجراء التعديل المبتغى على مصيرك. تلك كانت حسرتك الأخيرة، أن تتخلى عن السياسة منذ البداية لتكون أديباً منذ البداية. فأنت من أنت إبن شرطك التاريخي وابن ذاتك. وليس من شيم هذه البلاد أن ترحم أبناءها ليكونوا عاديين كسائر البشر. وليس من شيمها أيضاً أن تأذن للضحية بلوم نفسها. وفيك من الساحات والأصوات، فيك من تقاطع الطرق وحوادثها، فيك من البطل والضحية والشاهد، فيك من الأنا والجماعة والآخر، ما كان يُعجز الفرد فيك من أن تكون الراوية، لأنك أنت، أنت الرواية المفتوحة على الجهات كلها والمفارقات كلها والأسئلة كلها ما عدا سؤالاً واحداً: هل إنتصار الإطار هو هزيمة المعنى، وهل هزيمة الأداة هي موت الفكرة؟

والآن وأنت مسجّى على فكرتك ذات الأقانيم الثلاثة: الحرية والعدل والسلام، فإن شعبك بأسره، شعبك العربي وأشتاته من آخر الصحراء حتى آخر البحر، وأصدقاءه الأوفياء، أصدقاءك، من قوى السلام في هذه البلاد وفي العالم يزدادون وفاء لفكرتك فتلك هي وصية الحُر للحُر، وتلك هي هوية وجودنا الإنساني المشترك على أرض المعاني الإنسانية العريقة والتعددية الثقافية والدينية والقومية، أرض السلام العطشى إلى السلام.

فانهض معنا يا أبا سلام لنمضي قليلاً معك وإليك، إلى هنالك، إلى حيث تريد أن تنام حارساً دائماً لتلفّت القلب إلى حيفا، واغفر لنا يا معلمنا ما صنعت بنا وبنفسك. إغفر لنا أننا سنعود بعد قليل إلى أنفسنا ناقصين.

(الناصرة – 1996/5/3)



رام الله، 1996/4/13

تصوير: ياسر عبد ربه

أنطون شمّاس

الكتابة في الصندوق

في أواخر نيسان 1991، وكنتُ غارقاً يومها من جديد في قراءة «كتاب ألف ليلة وليلة»، تذكرتُ سؤالاً كنت أودّ أن أطرحه على إميل حبيبي قبل ذلك بعشرة أعوام، يوم كنت غارقاً في ترجمة «المتشائل» إلى العبرية. وأنا لم أطرح عليه السؤال في حينه لأني لم أكن على يقين من صدق ظنوني؛ ولم تكن يومها وقاحة المترجمين، بعدُ، قد راودتني عن نفسي.

والسؤال يتعلق بمقطع من «المتشائل»، ورد في الباب الثاني، في بداية الفصل الحادي عشر، ضمن «بحث عجيب في الخيال الشرقي وفوائده الجمّة». ألمح المؤلف في ديباجته إلى أنه مأخوذ من «كتاب ألف ليلة وليلة»: «ما قولك بالفلاح المسكين، الذي خاف على عروسه من كلام الناس، فوضعها في صندوق حمله فوق ظهره وقام يحرث أرضه وهي فوق ظهره يوماً يوماً. فلما التقاه الأمير بدر الزمان، فسأله عن سبب هذا الصندوق محمولاً فوق ظهره، فأخبره. فأراد الأمير أن يرى بعينيه، فأنزله وفتحه، فإذا بعروسه مضطجعة، في الصندوق فوق ظهر زوجها، مع الشاب علاء الدين».

نبشتُ يومها أجزاء الكتاب السحري جميعاً، طولاً وعرضاً، ولكني أخفقت في العثور على مصدر المقطع. ثم شغلتني بعد ذلك صناديق أخرى عن أمر ذلك الصندوق، إلى أن وجدتني، في أواخر نيسان 1991، ولأمر ما، مشغولاً من جديد بموتيف «المرأة في الصندوق»، كما يقول الفولكلوريون. فإذا بذلك الفلاح يأخذ بتلابيبي من جديد.

وموتيف «المرأة في الصندوق» يظهر أول ما يظهر في الحكاية الإطارية لـ «كتاب ألف ليلة وليلة»، ثم يعود في الليلة الثانية بعد الستمائة بحسب بولاق، «أكثر الليالي سحراً»، كما يقول

خورخي لويس بورخيس في مقالة قصيرة له عن «دون كيخوته». في تلك الليلة تلقي شهرزاد على مسامع شهريار حكاية شبيهة بحكايته التي وردت في مطلع الكتاب، حين خرج بصحبة أخيه، بعد خيانة زوجتيهما، يبحثان عن رجل مصيبته شرّ من مصيبتهما. فيلتقيان بالجنّي الصاعد من البحر حاملاً صندوقاً في داخله صبية. وبعد أن يستغرق الجنّي بالنوم، تجبرهما الصبية على النزول من الشجرة حيث يختبئان، وتهددهما بإيقاظ الجنّي إذا لم يلبيا رغبتها. فيفعلان.

وفي الخامس والعشرين من نيسان 1991، في لحظة من التهوّر والتخمُّر والتحرر من دالّة المؤلف، وفي أعقاب محاولة يائسة جديدة للعثور على الأصل في طبعات مختلفة من الكتاب السحري، تملّكتني شجاعة مفاجئة لا أدري مصدرها، فبعثت بفاكس ليلي إلى إميل حبيبي بما معناه: بحقّ الشيطان، عثرتَ على قصة الفلاح والصندوق والأمير بدر الزمان في «كتاب ألف ليلة وليلة»؟

وما لبث الفاكس أن حمل إليّ، بعد ساعة من الزمان، ردّ المؤلف، وهذا نصه:

«كان عليّ أن أنتظر أن تكون أنت، دون خلق الله أجمعين، من «سيمسكني» في القضية الأدبية التاريخية المذكورة. فإنني لم أجد قصة الصندوق على ظهر الفلاح إلا لدى ليو تولستوي في إحدى قصصه القصيرة. وتحدّث عن فلاح عربي أو شرقي. فارتأيت أن أحيلها على «ألف ليلة وليلة» موقناً بأن تولستوي قد وجدها في إحدى النسخ (....) وبما أن الأجداد أضافوا على ألف ليلة قصصاً جديدة على مرّ العصور، فقد «قررت» أن أضيف قصة الصندوق المأخوذة عن ليو تولستوي، ولا أعتبر الأمر «سرقة أدبية»: حاشا وكلا. إنما هي «إضافة أدبية» ملائمة. وأنا متأسف على أنني نسيت المصدر التولستويي الذي أخذت عنه الرواية وأحلتها على ألف ليلة. وما عليك الآن إلا الإنتقال من البحث في ألف ليلة إلى البحث في مؤلفات ليو تولستوي. وإذا شئت أن تنشر اعترافي هذا فأنت حر التصرف به لأني لا أجد فيه أية غضاضة. وقد يكون ليو تولستوي هو الذي حفّزني على هذه «الإضافة» ولكنني غير متأكد. وتأكد أنني رهبت جانبك في الماضي أيضاً. فكيف الآن؟».

يقول بورخيس في سياق آخر، في حديثه عن كافكا، بأنه خلافاً للإعتقاد السائد فإن الكتّاب يخلقون من سبقهم ويغيّرون من تصوّرنا للماضي. فـ «ألف ليلة وليلة» من جهة، والمصادر الكلاسيكية للأدب العربي من جهة أخرى، لم تعد ما كانت عليه بعد قراءة النص الحبيبي؛ ولعل في ذلك تكمن عظمته الأساسية.

في زاويته الأسبوعية التي نشرها على مدى أعوام طويلة في «الإتحاد»، ممهورة بتوقيع «جهينة»، وهي زاوية سياسية هجائية، قام حبيبي بابتداع أسلوب فذ في اللغة العربية الحديثة، طوّعه فيما بعد للكتابة الأدبية. ذلك الأسلوب الذي كان ليقضّ مضجعي ومضاجع غيري من المترجمين. والجملة الحبيبية، متعددة الطبقات، تنساب كالبهلوان السائر على حبل مشدود بين إبن المقفع والجاحظ من طرف، مروراً بالمقامة والرسالة، ثم بلغة الشدياق وغيره من ثوار عصر النهضة، ثم بلغة التوراة

بترجمتيها البروتستانتية والكاثوليكية، وبين لغة الصحافة العربية الحديثة من الطرف الآخر (والتي أسهم هو على أي حال في ترييعها وتنويرها). وفي هذا السياق يمكن إعتبار إميل حبيبي «عميلاً» عبقرياً في علاقته مع التراث: فهو الإبن المخلص البار والثعلب المحتال المتمرد في آن معاً.

الرواية، بمفهومها الغربي، لم تكن لتثير اهتمامه؛ لحسن حظه، ولحسن حظنا على وجه الخصوص. فهو، إذا استثنينا قراءته الإبداعية للنص الكلاسيكي العربي، وخلافاً للإشاعات التي أسهم هو في ترويجها عن نفسه، لم يقرأ إلا النزر اليسير من الأدب العالمي، وأقل من ذلك من الأدب العربي الحديث. وهكذا أفلح، كما لم يفلح أحد من أبناء جيله، في الحفاظ على الحكواتي الذي بداخله دون أن تنال منه شائبة. وتلك عظمته الأخرى.

في الأعوام الأخيرة أكثر حبيبي من البكاء والتشكي بأنه، وخلافاً للنهج الذي اختاره في حياته، لم يعد في إمكانه حمل بطيختين بيد واحدة، بطيخة السياسة وبطيخة الأدب. فعقدان من الزمن في البرلمان الإسرائيلي، والتزام كامل بقضايا «الجماهير الفلسطينية في إسرائيل» منذ نكبة 48، وكتابة صحافية كثيرة المطالب. كلها أشياء أبعدته عن طاولة الكتابة الإبداعية. وقد كنت أنا أيضاً أعتقد مع المعتقدين، طوال الأعوام التي رافقتُ فيها أعماله، بين قارئ ومترجم، بأن السنين الطويلة التي أهدرها هذا الرجل الحكيم في العمل السياسي قد ذهبت هباءً، ناهيك عن العقدين اللذين أمضاهما في الأرض اليباب التي تدعى «الكنيست». غير أني لم أعد مقتنعاً بذلك؛ فالكاتب الذي روى علينا خرافية «سرايا» هو، في نهاية الأمر، حصيلة ماضيه المثلى، والقارئ الأناني الذي بداخلي يرفض أن يرى كاتباً آخر، ذا ماضٍ مختلف، يقوم مقامه.

وها أنذا أراه الآن، كما لم يخطر في بالي من قبل، كذلك الفلاح الذي أمضى سحابة حياته في حراث العمل السياسي، حاملاً صندوقاً على ظهره، معللاً نفسه بأن أياماً ستأتي فيتفرغ لسراياه، كتابته حبيسة الصندوق. وتأتي الأيام، لكنها قصيرة. وها أنذا أراه الآن، كما لم يخطر في بالي من قبل، حاملاً الوطن على ظهره، معللاً نفسه بأن أياماً ستأتي- فهل ستأتي الأيام ويأتي بدر الزمان بالدولة؟

ستأتي المراثي. لأن إميل حبيبي، أولاً وقبل كل شيء، كان يكتب المراثي. فمنذ قصص الخمسينات وحتى «سرايا» التسعينات كتب مرثية طويلة، مُسلطنة، شجينة، مُرمشة، مقشعرة، تأخذ بتلابيب القارئ فتهزه وتلطمه أحياناً وتواسيه أحياناً؛ مرثية لحيفا الضائعة، مسقط رأسه، والتي بقي فيها، كشهادة شاهد قبر؛ مرثية للوطن الضائع، بجداوله وشطآنه وأسماكه وصخوره وحجارته وترابه وأشجاره وأعشابه، بمبانيه وبيوته وشوارعه ودروبه ومناظره الظاهرة والمخفية، بمدنه وقراه الخربة والمبنية، وخاصة بأسمائه الممحية. ولكن كتابته، في نهاية الأمر، منحت الفلسطينيين «بيتاً قومياً» أفخم وأجمل بكثير من جميع البيوت التي وُعدوا بها منذ عام بلفور.

بيتان من الشعر العربي الكلاسيكي رافقاه طوال حياته الكتابية، كشعار وجداني وأيديولوجي:



حيفا، 1993/8/29
في حوار مع أنطون شمّاس، بمناسبة صدور «سرايا بنت الغول» باللغة العبرية.

عسى الكرب الذي أمسيت فيه — يكـون وراءه فرج قريبُ
فيأمن خائف ويفك عـان — ويأتي أهله النائي الغريبُ

في نيسانه الأخير كتب في إفتتاحية هذه المجلة عن أكلة لحوم البشر بحسب إميل س. يزهار! في نيسانه الأخير شاهد مذبحة قانا ورأى كيف يتحول الدم هذه المرة إلى ماء! في نيسانه الأخير رأى حصار التجويع الذي فُرض على المناطق المحتلة وكيف أن أرض الوطن لم تنبت أية بارقة بشأن الدولة الفلسطينية.

أما الكرب الذي لفه فقد استُبدل بتراب الكرمل الذي عرفه حبةً حبة.

أما النائي الغريب الذي أحبه فقد أتى أهله لأيام معدودة.

أما الفرج ـ فنحن هنا في انتظاره، ولسنا على عجلة من أمرنا على أي حال.

(*) الكاتب أديب فلسطيني يقيم حالياً في الولايات المتحدة، وهو مترجم أعمال إميل حبيبي إلى اللغة العبرية.

محمد شكري

عمّي حبيبي

أعتقد أن إميل حبيبي هو الكاتب العربي الوحيد الذي لم يضحّ بالفن الروائي وهو يكتب عن المأساة الفلسطينية، ويستحيل ضميراً لشعبه. لقد أثبت بعمق، من خلال رواياته، أن العالمية لا تتحقق إلاّ إذا كانت لها جذور عميقة في تربتها المحلية.

تنطوي كتاباته على الكثير من الإعجاز الفني واللغوي. لقد سطر واقع الإنسان الفلسطيني، جاعلاً من النبرة الساخرة فناً روائياً سامياً. وليس في أعماله حشو وزوائد لغوية. إذ عبّر عن أقصى أبعاد المعنى، في أقل ما يمكن من البهرجة والكلمات. ولذلك نجد في إبداعه بذور الديمومة الأدبية.

إلتقينا في ندوات أدبية عدة، في إسبانيا وإيطاليا وإنكلترا والمغرب. كنت أناديه تحبباً: عمّي حبيبي. وكان يقول لي: أهلاً بك أيها الغجري. لأنه كان يعرف أنني عاشرت الغجر في طفولتي وتعلمت منهم الكلمات الأولى من اللغة الإسبانية - الأندلسية.

إن إميل حبيبي لم يغادر الأدب الرفيع، مثلما أنّه لم يغادر أبداً حيفا أينما كان.

(*) الكاتب روائي مغربي.

الطيّب صالح

قلعة مهدّمة ترفض الإستسلام

منذ أن التقيت إميل حبيبي أول مرة في باريس نحو عام ثلاثة وثمانين، وأنا أتخيله مثل قلعة مهدّمة ولكنها صامدة ترفض الإستسلام. ربما بسبب الأخاديد العميقة على الوجه، والعينين المتعبتين والأجفان المتهدّلة التي ملأها سواد كأنه كحل، والجسم الضخم المتنافر الأجزاء، الذي يوحي بالقوة والضعف في آن واحد.

ثم التقينا مرّات عديدة في أصيلة في المغرب. كانت بادرة كريمة من محمد بن عيسى أنه ظل يدعوه إلى «مهرجان أصيلة»، وكان ينوي تكريمه خلال موسم العام 1995 الذي لم ينعقد لسوء الحظ.

كان على سجيته في ذلك المحيط العربي، بعد الحظر الغبي الذي ضربه العرب ردحاً من الزمن على الفلسطينيين الذين آثروا البقاء، وصاروا يحملون الجنسية الإسرائيلية بالضرورة. لم يكتفوا بالحظر، ولكنهم كانوا ينظرون إليهم بريبة وحذر، كأنهم يعاقبونهم على تشبّثهم ببيوتهم وأرضهم.

لذلك كان في سمت إميل حبيبي، غير قليل من التحدي، وشيء من الإحساس بالتفوّق المعنوي، كونه ظلّ مرابطاً في الوطن «الذي ليس لنا وطن سواه» - كما كان يقول. ظلّ يصابر ويصارع، ويتحمل الإهانات اليومية على أيدي الإسرائيليين المحتلين، يكسب شيئاً ويخسر شيئاً، ينتصر مرة وينهزم مرة. وأعجب شيء أنه على الرغم من تجربته المريرة، وجد في قلبه سعة من الحب والسامحة، ليؤمن بإمكان التعايش بين الشعب العربي والشعب الإسرائيلي، وحتمية ما أسماه بـ «المصالحة التاريخية».

جذبني إليه من أول وهلة، أريحيته الفكرية والروحية، وشجاعته في أن يقول ويفعل ما يؤمن به، وأحببت أسلوبه في الحديث وفي الكتابة.

في أسلوبه، تلك الروح الإنسانية الغامرة، والشجاعة والجرأة، إضافة إلى العناية باللغة، وتملك ناصية البيان العربي، وكان، على الرغم من أنه نصراني، يكثر من الإقتباس والإستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وذلك دأب كل إخواننا النصارى المخلصين، الذين يعتبرون الإسلام جزءاً من إرثهم الروحي والحضاري، كما نعتبر نحن المسيحية جزءاً من تراثنا.

رحم الله إميل حبيبي، كان إنساناً فريداً وكاتباً فريداً، وفقد إنسان مثله، دائماً خسارة لا تعوّض.

(*) الكاتب روائي سوداني مقيم في لندن.

سعد الله ونّوس

أشكال جديدة من المقاومة والأمل

على الرغم من أنّي أختلف معه حول مواقف وآراء سنواته الأخيرة، فقد جللني الحزن حين سمعت نبأ وفاته، وشعرت أن الحياة الثقافية العربية ستفتقد برحيله بعضاً من حيويتها، وكذلك بعضاً من نضارتها، لقد كان إميل حبيبي معلماً من معالم حياتنا الثقافية. كان جريئاً في مواجهة الذات مجدداً في الكتابة، ومن خلال فكاهته السوداء كان يستنطق لنا أملاً وقدرة على الحلم.

من منّا لم يسكنه «المتشائل» مثل هاجس، أو كآبة، أو ضحكة شاحبة. وأنا شخصياً سكنني هذا المتشائل سنوات عديدة، لأني كنت أريد أن أستوحي عملاً مسرحياً من الرواية، وأذكر أني كتبت تصوراً كاملاً للمسرحية، وأرسلته إلى إميل في براغ أواخر السبعينات، وجاءني منه جواب متحمس لخطط المسرحية، وأذكر أنه حثّني على البدء بالعمل فوراً، لكي لا تسرقنا عاداتنا الموروثة بالتكاسل والمماطلة والإرجاء، وختم الرسالة قائلاً: «أخي سعد، أضرب الحديد وهو حام».

وها هو إميل يموت ولم أضرب الحديد، مع أنه كان حامياً في داخلي، وأعترف الآن أن السبب الجوهري الذي كان يحبطني، ويثبط عزيمتي هو خوفي وشعوري بالعجز عن كتابة مسرحية توازي «المتشائل» في غناها ولذاعتها ورحابة مستوياتها، وحين شاهدت الممثل محمد بكري يقدم «المتشائل» كما هي وعلى صورة مونودراما يؤديها ممثل واحد، قلت في نفسي وأنا أشهد أداء محمد بكري المتميز: هذا هو أفضل الحلول لتقديم «المتشائل» على المسرح، طالما أنه لم يوجد بعد المسرحي القادر على استلهام «المتشائل» في نص يوازيه إبداعاً وغنًى.

ذات يوم، وحين تبدأ مناقل التاريخ والنقد في غربلة آلاف الصفحات، ومئات الكتب التي حاولت أن تقدم شهادة صادقة عن التراجيديا الفلسطينية العربية، ستكون «الوقائع الغريبة في

اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل» بين القليل الذي سيبقى، ومعها بعض أعمال إميل الأخرى في طليعة ذلك القليل الذي ستحفظه ذاكرة التاريخ والأجيال المقبلة. قدّم إميل في أعماله شهادة تفيض بالإبداع والتجديد، ومأساتنا التاريخية كانت دائماً تحتاج، إلى جانب الصدق، تلك الموهبة التي تستجلي كل أبعادها عبر الإبداع والتجديد. وينبغي ألا يفوتنا هنا أن التجديد في الأدب هو في عمقه إبتكار لأشكال جديدة من المقاومة والأمل.

رحل إميل حبيبي.. ولكن من يستطيع أن يجعل «المتشائل»، هذا المزيج من الهواجس والكآبة والضحك الشاحب، يرحل من نفوسنا وضمائرنا وشهواتنا الإبداعية؟

(*) الكاتب مسرحي سوري.

إحسان عبّاس

أحد عمالقة الأدب العربي الحديث

كانت حواجز الزمان والمكان بيني وبين إميل حبيبي ذات سلطان قادر قاس، حرمنا من اللقاء، وكان هو - كما كنت أنا - نخشى أن لا نلتقي قبل رحيل أحدنا عن هذه الدنيا، فكان ما خشيناه، هكذا ذهب إميل من دون أن أودعه، ولكن على الرغم من كل ذلك، فقد كان رفيقي في رحلتي الطويلة، بالروح والنجوى، كما كنت رفيقه في كل كتاب كتبه.

قطعنا معاً مرحلة الدراسة الإبتدائية وسنتين من المرحلة الثانوية، وكان إميل في هاتين المرحلتين علمي الإتجاه، متفوقاً في الحساب والجبر والهندسة، ولهذا كان اتجاهه إلى القصة والرواية والمسرحية يعدّ في ذاته نبوغاً: إن الحياة هي التي فجّرت لديه طاقة أدبية كامنة، لأنها كانت مليئة بالتحديات، وحين سار قلمه في هذا الإتجاه، جرى فيه متفرداً في دنيا الإبداع.

لم يلجأ إلى محاكاة نموذج جاهز بل ابتدع طريقة جديدة في الكتابة السردية، وحين يجيء الأوان لتعدد مختلف الإسهامات الأصيلة في الإبداع الفلسطيني (بل العربي)، سيكون من الصعب على مؤرخ ذلك الإبداع أن يصنّف إميل حبيبي في «خانة» يشاركه فيها آخرون، بل سيجد مؤرخ ذلك الإبداع أنه كان نسيج وحده، في ما أبدع، حتّى أنه كان في كل مرحلة يتفوق على نفسه، وسيجد أن «سداسية الأيام الستة» و«إخطية» و«المتشائل» و«خرافية سرايا بنت الغول» تجمعها وحدة الكاتب، وتُباعد بينها ذرى متدرجة في طبيعة الإبداع. أكبر تقصير أؤاخذ به نفسي أنني لم أكتب عن «أدب» صديق عزيز، واكتفيت بأن أشعر بالإعتزاز بأن لي صديقاً ليس من السهل أن يبلغ شأوه الآخرون، ولكن: هل كان في مقدوري أن أكتب عنه بمستوى أدبه؟ ذلك ما أشك فيه، فإن الإبداع «المعجز» يمثل أكبر تحدٍ للناقد.

سألني أحدهم: لماذا لا تكتب عن المتنبي؟ فأجبت أنه ليس من السهل أن يتصدى المرء للكتابة عن العمالقة، وإميل كان، في ما أنتجه، أحد عمالقة الأدب العربي الحديث.

(*) الكاتب ناقد فلسطيني مقيم في الأردن.

إدوار الخرّاط

فلسطين القديمة

لا شك في أن إميل حبيبي من أبرز كتّاب العرب والفلسطينيين، خصوصاً في الفترة الأخيرة، ولا شك في أنه ترك بصمة لا تنمحي بكتابيه البارزين «المتشائل» و«سرايا بنت الغول»، ولا شك أيضاً في أنه كان من أكثر كتّابنا إثارة للجدل والخلاف مع تسليمنا بمكانته وقيمته الأدبية. إن مجرد بقائه في فلسطين القديمة علامة من علامات الشجاعة التي لا يمكن إنكارها وكفاحه السياسي الطويل يندرج في سجل حياته الحافل، وبعد ذلك تبقى المسائل أو القضايا التي اختلفنا ونظل نختلف معه فيها، لأنني لا أعتقد أن الكاتب الكبير يمكن أن نتكلم عنه بضمير الماضي.

من هذه القضايا مسألة قبوله الجائزة من أيدي القيادة الإسرائيلية التي يثبت يوماً بعد يوم أنها تقطر بدمائنا، ومن المسائل الخلافية أيضاً إصراره على التعايش مع رموز الصهيونية التي يعتبرها البعض معتدلة، والتي نراها دائماً في صميمها ممارسة وفلسفة للقمع والإستعلاء العنصري والعدوان والسقوط تحت الهيمنة الإمبريالية.

هذه الخلافات لا تنفي حسّه أو إحساسه الوطني الحار والعميق الذي لا يمكن أن يكون موضع سؤال، كما أنها لا تنفي خصائصه الفنية العالية التي تمتاز بالجمع بين المقدرة على استيعاب التراث إستيعاباً حياً وتطويعه لمقتضيات الحساسية المعاصرة، كما أن أسلوبه الشعري يمتزج بالدعابة الساخرة التي قد تكون رقيقة، وقد تصل إلى حد الفكاهة السوداء المريرة أحياناً.

هذا إلى ابتعاثه الموحي لما أسميه فلسطين القديمة التي تظل وينبغي أن تظل، بفضل كتاباته وكتابات رفاقه، حيّة في وجداننا.. وداعية باستمرار إلى مواصلة العمل، بل الكفاح، في سبيل تحقيق هويتها التي لا ينال منها لا القمع ولا العدوان ولا مرور الزمن.

(*) الكاتب روائي مصري.

عبد الوهاب البيّاتي

لغة صقلتها المعارك

عندما بلغني نبأ رحيل الكاتب الكبير إميل حبيبي تذكرت أول لقاء بيننا، في منتصف الثمانينات، إذ فوجئت ذات مساء برجل يتقدم مني في أشهر شوارع مدريد، ويقدم نفسه بأنه إميل حبيبي، وبأنه أحد قرائي، وبخاصة ديوان «أباريق مهشمة»، ولم أكن قرأت آنذاك إلا كتاباته السياسية التي كانت تصلني، في الستينات، عن طريق توفيق زيّاد حين كان يدرس في مدرسة كوادر الأحزاب الشيوعية في موسكو.

ثم دعيت إلى «معرض القاهرة الدولي للكتاب» سنة 1994، فالتقيت هناك إميل حبيبي وعدداً من الأدباء العرب، وأذكر أنه سألني ذات صباح ونحن نتناول الإفطار إن كنت قرأت له شيئاً، وأراد أن يعرف رأيي في رواياته، قلت له إعجابي بأسلوبه الروائي، فنظر إليّ باستنكار: هذا هو الشيء الوحيد الذي أعجبك في أعمالي؟ قلت: كلا، فأنا عنيت أنك كامل الأوصاف، وكنت أمزح، وهذه العبارة هي تتويج لكامل الأوصاف، فضحك ضحكة كبيرة، وطلب كوباً من عصير الليمون، ودار بنا الحديث، فتناولت بالتفصيل «المتشائل» و«إخطية»، وهذا كل ما قرأته له حتى الآن.

عندما تقرأ حبيبي تحس أن عالمه الروائي ولد من اللمسة الأولى، وهو يشبه في ذلك شعراء التروبادور الذين يرتجلون أجمل القصائد ويغنونها في لحظات، هناك تعادل وتكامل بين أعماله الروائية وشخصيته التي ليست ذاته وحسب، بل هي ذات مجتمع وشعب، وهناك انصهار لافت بين عالمه الروائي والموروث الشعبي الفلسطيني والعربي، كما أن له أسلوباً مميزاً، ولغة رشيقة صقلتهما المعارك الأدبية والسياسية، وحولتها سبائك رقيقة من ذهب لا يحتاج القارىء إلى كبير عناء للغوص في استعاراتها ومجازاتها، فهي لغة الحقيقة والمجاز والإستعارة معاً.

وحبيبي لم يبق في رواياته عند حدود العموميات، بل تناول الظرفي والمتحول والمتغير، فمثله مثل من يجمع غبار النجوم، أو ذهب الكتابة، بعد أن تكون الكتابة احترقت ولم يبق منها إلا الصدى، أي ما تشير إليه من معان بعيدة ورموز.

(*) الكاتب شاعر عراقي يقيم في الأردن.

حسن داود

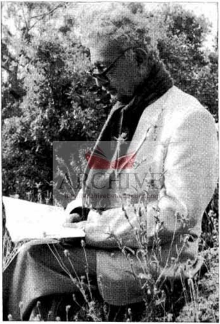
نغمٌ فالتٌ في الرواية العربية

أحسب أن إميل حبيبي كان يَحلّ الكتابة في مرتبة ثانية من اهتماماته، أو ربما في مرتبة أولى، لكنه أشرك معها أشياء كثيرة أخرى بينها عمله في السياسة والحزبية، كما بينها أيضاً إهتمامات خاصة به، بشخصه، ما دام أنه، تبعاً للرجل الذي كانه، لن يرضى بأن يكون الدأب ميزته الوحيدة.

أحسب إذاً أن غرضه من كتابة ما كتبه، هو إضافة صفة جديدة إلى شخصه المتعدد الصفات، لم يكن مهتماً، كما أحسب، أن يذهب في كتابته إلى أبعد مما ذهب إليه، يشهد على ذلك إقلاله، ثم شخصية «المتشائل» التي ألفها في أول أعماله، وظل ملتصقاً بها، أو ظلّت ملتصقة به، حتى آخر كتاباته. ربما كان نغماً في الرواية العربية، فالتاً وسابحاً بمفرده، وهو لم يرد أكثر من ذلك، إذ كان يحب أن يستعمل جسمه وصوته في حياته، وهذا ما لا يتيحه كثيراً الإنصراف إلى الكتابة.

بل كان يحب أن يتوسع بهما مجتذباً. كما فعل خلال إحدى الندوات في لندن. سامعيه أو مشاهديه إلى أن يروا فيه أديباً مختلفاً عن الأدباء الآخرين، كأنه أبوهم الطيّب المتسامح، لكن الحر أيضاً في أن يفعل ما يفعله أكثر الأبناء طيشاً. كأنه بطل رواية لم يكتبها، وما ذاك إلا ليظل مرتفعاً عمّن يكتبهم، الإرتفاع الذي يجعله حراً في التصرف بهم، وساخراً أيضاً من أفعالهم. لكنها السخرية المحببة المثيرة للضحك والمودة معاً.

(*) الكاتب روائي لبناني.



حيفا ـ وادي العشاق ـ 1996/4/18
يقرأ في «سرايا بنت الغول»
تصوير: سهام داوود

فؤاد التكرلي

فنان كبير محظوظ

لفتت نظري، منذ البداية، فرادة إبداع إميل حبيبي. فأعماله و«المتشائل» خاصة، لا تشكّل نجاحاً في ابتكار شكل روائي ملائم فحسب، بل هي في الأساس حل فني للمواجهة الحاسمة بين فرد حسّاس وبين قوى العالم التي اجتمعت لتفتيت حياته وتدمير مصيره، هو وأبناء وطنه. هذا الحل يبدأ بالإبتعاد عن ذاته ومأساتها، والالتفاف عليها، والنظر إليها من زاوية التهكم والسخرية، ثم يحتويها ويبتعد بها عن المواجهة الآنية ليرتفع إبداعاً «بموضوعه» كله ويحيله إلى التاريخ، فيتجاوز بذلك الخسران الأكيد للحاضر، ليضمن ـ على نحو ما ـ المستقبل الذي صاغ حدوده، فنياً، بامتياز.

إميل حبيبي روائي عربي وجد طريقاً فنياً لإنتلا روحه، فسلكه بحمية وحماة إلى النهاية. إنه فنان كبير محظوظ، وأنا لا أرى منه غير هذا الوجه.

(*) الكاتب روائي عراقي.

جابر عصفور

إنجاز فريد

إميل حبيبي علامة مضيئة في تاريخ الرواية والقصة العربية المعاصرة، وهذه العلامة فرضت نفسها منذ فوجئ القراء بـ «سداسية الأيام الستة» فأدهشتهم لما تنطوي عليه من تقنيات جديدة، وسرعان ما تحولت الدهشة إلى إعجاب وفتنة عندما قرأ هؤلاء «المتشائل» التي كانت فتحاً لأفق جديد على مستويات السرد القصصي، وتجسيداً لإنجازات متميزة تجاوزت حدود الرواية الفلسطينية إلى حدود الرواية العربية ذات الحضور الإنساني المتميز.

واستمر إميل حبيبي في كتاباته الروائية يحاول الوصول إلى القمة التي وصل إليها في «المتشائل» ويحاول أن يتجاوزها في الوقت نفسه، ولكن هذه الرواية بالذات تظل إنجازاً فريداً في كتاباته وفي أفق الرواية العربية بوجه عام. ومن المؤكد أننا تعرفنا في إميل حبيبي على شخصية المثقف العربي المقاوم الذي حارب من داخل فلسطين، وقاوم كل محاولات طمس الهوية التي مارستها إسرائيل. ولا شكّ في أن تأكيده للهوية العربية داخل إسرائيل أمر جدير بالتقدير والإحترام.

قد نختلف معه في آرائه السياسية الأخيرة، أو في بعض تصوراته للصلح بين العرب وإسرائيل، أو في قبوله بـ «جائزة إسرائيل»، ولكن هذه الإختلافات لا تقلل إطلاقاً من قيمة الرجل ومن مكانته الإبداعية التي ستظل مضيئة ومؤثرة.

(*) الكاتب ناقد مصري، وهو الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة في مصر.

بشير البرغوثي

مدرسة شاملة دائمة العطاء

لا أعتقد أن إنساناً التقى بإميل حبيبي واستمع إليه لم يخرج بعد اللقاء معجباً بتلك الشخصية المتعددة المواهب والمحببة إلى النفس.

وفي كل مرة التقيت به كان يفاجئني بالعديد من الأسئلة والتساؤلات الجديدة حول ما نحن فيه. أما إستنتاجاته فكان يتركها للحوار دون «أستذة» وفي جو من الألفة التي تشجع على الاختلاف معه، في بعض الأحيان.

لقد كان الهم الفلسطيني هو هم حياته الدائم، منذ كان مناضلاً بارزاً في صفوف الحركة العمالية الفلسطينية وقائداً في عصبة التحرر الوطني وحتى اللحظات الأخيرة في حياته.

إنهم نادرون أولئك الرجال الذي بقي منهم وتر النضال مشدوداً منذ أيام الإنتداب البريطاني حتى يومنا هذا، مثلما كان عند فقيدنا الكبير إميل حبيبي.

ولست، في هذه العجالة، بصدد استعراض وقائع تلك الحقيقة، فهي مبسوطة على سطح حياتنا اليومية وفي سجل مسيرتنا الكفاحية.

ولا أبالغ في القول إن إميل حبيبي الإنسان والمفكر والكاتب المبدع والمناضل المثابر كان مدرسة شاملة تربّت فيها أجيال من المناضلين، وستستفيد منها أجيال أخرى بعد وفاته، وحينما أستعرض ما تعلمت منه يزداد شعوري بفداحة خسارتي الشخصية بغيابه.

وأكتفي هنا بالقول إن إميل حبيبي كان مفكراً مجدداً لم يستسلم لقوة العادة في التفكير رغم تقدمه في السن، ولا للقوالب الجامدة، كما لم تفتر عنايته بهموم الإنسان الحياتية في أبسط وأعقد

مظاهرها.

وقد رأى، في وقت مبكر، الصلة العضوية بين التقدم الإجتماعي والديمقراطية، ورفض أي تبرير لتغييب الديمقراطية باسم التقدم أو باسم أية ذريعة أخرى.

كما انتبه إلى البعد الإسرائيلي في النضال الوطني الفلسطيني، وقدّر، بصورة صحيحة، أن تطورات إيجابية ستحدثها عملية السلام في المجتمع الإسرائيلي، وقد اتبع هذا التقدير بالعمل غير مبال باتهامات ظالمة انطلقت من بعض الأوساط.

وقبل ذلك وبعد ذلك كان البعد الإنساني هاديه ومرشده في الإقتراب من كافة همومنا، ورفض أي إهمال لذلك البعد في الفكر أو الممارسة.

وليتنا ندرس، عبر هذا المدخل، تراث تلك الشخصية العظيمة لنفهمها بوضوح أكثر ونتعلم منها بقدر أكبر.

(*) الكاتب مفكر فلسطيني، وهو الأمين العام لحزب الشعب الفلسطيني.

فيصل درّاج

روّض الضحك الأسود

مع رحيل إميل حبيبي تغيب قامة ثقافية عالية الصوت، وزّعت جهداً متجدداً على ميادين متعددة، وانتزعت إعجاب وتصفيق الجميع في زمن، واستثارت نقد وملامة البعض في زمن لاحق، ومثلما تخاصم الراحل الكبير مع البعض في زمن قلق ومضطرب، تمرد على ذاته أيضاً، حين انتقل من انضباط الالتزام السياسي إلى «عالم من دون أقفاص»، كما قال. ولعل إبداعه الأدبي، كما خصوماته الفكرية والسياسية، صاغت شخصية ذائعة الصيت وكثيرة الإنتشار من ناحية، وخلق مثقفاً إشكالياً من ناحية ثانية، من دون أن يمس هذا حضوره الفكري الفاعل، الذي لازمه حتى الرمق الأخير.

ولم تكن مصائر إميل معزولة عن حياته في ظل الإحتلال الإسرائيلي، ومن صورته الأدبية في العالم العربي، إذ وصل أدبه إلى القارىء العربي، بعد هزيمة حزيران، حين نشرت له «دار الهلال» المصرية مجموعته القصصية الأولى «سداسية الأيام الستة» التي بدت صوتاً عربياً يترجم الأسى الفلسطيني في شرط الإحتلال، ويعبّر عن صمود الفلسطيني وتعلقه باللغة والهوية العربيتين. وما أن جاءت روايته «الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل» في منتصف السبعينات، حتى كان الرجل ظفر بمرتبة مرموقة لدى القارىء العربي، استقرت وتوطّدت في أعمال لاحقة مثل «إخطية» و«خرافيّة سرايا بنت الغول».

وواقع الأمر أن حبيبي كان موضوعاً لاحتفال عربي مزدوج: إحتفال تفرضه موهبته الأدبية الأكيدة، واحتفال آخر تفرضه شهادته الأدبية العربية المقاومة للإحتلال. أي أن عروبة إميل، في ضمير القارىء العربي بعد هزيمة حزيران، كانت وجهاً آخر لموهبته الأدبية. وكانت هذه الصورة المزدوجة التي تتمازج

فيها العروبة بالإبداع، سبب اللوم الشديد الذي وقع على إميل، حين تُنسب إليه قول يُزري، به الصهيونية من منصريتها في صيف العام 1989، حين كان في مؤتمر أدبي في طشقند. وزاد اللوم، ووصل إلى حدود الخيبة والغضب، حين قبل إميل جائزة الإبداع الأدبي الإسرائيلية في بداية سنة 1992، كما لو كان الأديب الكبير خذل القارئ العربي الذي ساوى بين إبداعه وبين الرفض الشامل للمشروع الصهيوني.

ومثلما كانت صورة إميل القومية رهينة لصورته الأدبية في العالم العربي، فإن صورته السياسية الذاتية كانت بدورها رهينة ماضٍ سياسي طويل امتد عقوداً خمسة، فمنذ مطلع الأربعينات وحتى بداية التسعينات كان حبيبي منصراً فاعلاً في الأوساط الشيوعية الفلسطينية، وقلماً شهيراً في صحفها المتعاقبة: «الغد»، «المهماز»، «الجديد» و«الاتحاد». وما أن بدأت أركان الدول الإشتراكية بالإنهيار، حتى انطلق إميل باحثاً من دروب جديدة، «خارج الأقفاص» التي عاش فيها، أو بعيداً عن «كهوف الظلمة»، كما كان يقول. وربما كان إميل يبحث عن شباب فكري جديد، «لأن البحث عن الحقيقة لا يشيخ»، غير أن طريقته في البحث أثارت إستنكاراً جديداً، وأمدّته بوابل جديد من النقد والملامة.

واكتملت صورة إميل المؤرقة والمشوهة للتساؤل، بعد وصول إتفاق غزة ـ أريحا. إذ كان قلمه هو الأكثر حزماً واندفاعاً ومثابرة في الدفاع عن «عملية السلام»، ذلك أنه رأى فيها «إختراقاً فلسطينياً تاريخياً للجهة الإسرائيلية»، الأمر الذي حمله على مواجهة كل من يرفض «الإتفاق» أو ينتقده، سواء جاء هذا من أنيس صايغ وإدوارد سعيد، أو جاء من مثقفين عرب بشكل عام. وكان إميل في تطرقه الجديد يؤكد على تجربته الذاتية في ظل الإحتلال، ويتكىء على التجربة الفلسطينية الجماعية في شروط العسف والإحتلال، كما لو كان من «اكتوى بنار التجربة» هو الوحيد القادر على تصريف شؤونه بحكمة، أو كما لو كان كل من لم يذق نار التجربة الكاوية قاصراً عن تحديد مفردات الحرب والسلام.

ولعل هذا البعد المأساوي الصادر أبداً عن لقاء السياسي والفنان، هو الذي يرسل باجتهادات إميل السياسية إلى لا مكان، ويحتفظ بإبداعه الباقي المنشور في كتبه المتعددة التي تضم نثراً مشرقاً يقف إلى جانب أجمل صفحات رئيف خوري وطه حسين وأحمد فارس الشدياق. مع العلم أن أعماله هذه، تحتضن أيضاً منظوراً روائياً جديداً مزج بين المقامة والحكاية الشعبية والوقائع المعاصرة والآداب الكونية. وربما تقدم «المتشائل» صورة مدهشة عن رواية تكثف السخرية الشعبية النافذة، وتبنيها بعناصر روائية ليست بعيدة عن إبداع فولتير وسويفت والتشيكي هشيك. كل ذلك في مضمون بالغ الغنى، يحيل فيه الضحك الأسود إلى سؤال جارح، وترد فيه القهقهة الطليقة إلى أحزان إنسان مقهور، يلغي ذاته بذكاء كي يحافظ عليها.

وربما كان ذلك الإنسان المتهور تغلغل عميقاً في شخصية إميل حبيبي، حتى أصبحت السخرية جزءاً من كيانه، وغدا الضحك الأسود عنصراً ملازماً له، يستدعيه بصخب وضوضاء في «لكع بن لكع»، ويزامنه بحزن أليف في «إخطية»، ويدق بابه بيد واهنة في «سرايا بنت الغول». روّض حبيبي الضحك الأسود واستأنسه، واتكأ عليه في كتابة رواية ملتبسة هي مزيج من السيرة الذاتية والسيرة الجماعية الحزينة في آن.

ويرحل إميل حبيبي مخلّفاً صفحات وأسئلة كثيرة، تتضمن الأدب والسياسة ودلالات الوطن، وتحتوي أيضاً على شيء قريب من العبث. فما تسمح به شمس الصباح يرتد زوالاً متلاشياً لحظة الغروب، وأحلام الصبا التي جمعها الفتى مجتهداً، لا تلبث أن تستحيل إلى مزق مهملة على أعتاب الشيخوخة. كأن غرض الأديب إستيلاد الأحلام وتكثيرها في زمن، ثم جمع الأحلام وتشييعها في زمن آخر.

(*) الكاتب ناقد فلسطيني.

بيار أبي صعب

الرجل العجوز والبحر

غسان كنفاني تناثرت أشلاء جسده في انفجار الحازمية. جبرا إبراهيم جبرا إنطفأ حزيناً، وحيداً، في عزلة بغداد الأقسى من الموت. أما إميل حبيبي، فـ «باق في حيفا». هذا ما أوصى الأديب الفلسطيني الذي تمكّن منه الداء الخبيث قبل أيام، أن يُنقش على شاهدة قبره. وما أصعب البقاء في حيفا..

آخر الكبار يرحل بعد أن عايش التمزّقات والتحوّلات من «ثورة 1936» إلى الولادة العسيرة لـ «الدولة الفلسطينية»، ومن «عصبة التحرر الوطني الفلسطيني» في الأربعينات إلى البيريسترويكا التي جعلته يصفق خلفه باب «الحزب».. في التسعينات بعد إنهيار آخر الأوهام. يرحل كأنه أتم مهمته وساهم في تلك النقلة الصعبة بين زمنين، تاركاً الآخرين أن يواصلوا المغامرة: «الآن لا تأخذك إلى أي منفى، ولا تأخذنا إلى أي وطن.. أما كان في وسعي أن أجد الإثنين، دليلي وسبيلي؟»، هكذا خاطبه محمود درويش الذي وصل متأخراً إلى البلاد الممنوعة عليه من عقود، فلم يكن نصيبه من اللقاء سوى مراتب الجنازة، وكلام الرثاء.

ولد إميل حبيبي سنة 1922 في حيفا، في فلسطين. ومات سنة 1996 في حيفا.. في إسرائيل! عاش دائماً عند حافة الجرح موزّعاً على ضفتيه، مشتتاً بين الماضي والمستقبل، بين الوطن والمنفى الداخلي، بين السياسة والأدب، ناثراً تناقضاته كالعدوى الشافية، مخاطراً بالوقوف فوق المطبّات الوعرة والأراضي المزروعة بالألغام. تاركاً للآخرين أن يلعبوا دور «البطل»، ومستدرجاً شهود الزور إلى رميه بتهمة «الخائن»!

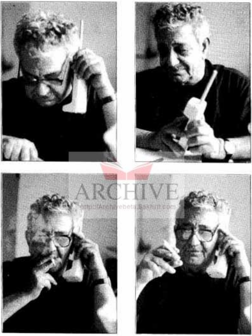
والمراهق الذي انخرط مبكراً في العمل السياسي، لم يصل الأدب إلا متأخراً. كأنه ثمرة النضج،

والملاذ الذي يتّسع لبأس المناضل، ومكان المواجهة الفعليّة دفاعاً عن الهوية. مثل بطله «المتشائل» عايش ولادة الكيان الصهيوني، وتعلم كيف يواجهه، ويشقّ لشعبه مكاناً فيه. ورأى كثيرون في قبوله بـ «جائزة إسرائيل» خيانة. أما هو فأرادها تتويجاً لكفاحه من أجل إعتراف المحتلّ بهويته وبشعبه. ثم منح قيمتها المادية إلى أطفال الإنتفاضة. ورأى فيه البعض الآخر محامي الشيطان لأنه دعا إلى «أنسنة» العدو. فأغضب مناضلي المنابر والشعارات بعيداً عن أرض البركان، يخبّئون كل عوراتهم وعيوبهم ومجزهم عبر تضخيم أسطورة «العدو» وعبر الإصرار على صورته الغيبيّة.

قد يكون حبيبي أخطأ في بعض المواقف. لكنه أخطأ منّا جميعاً كما ذكّر درويش. ويبقى باستفزازيته ذلك العنصر الصحيّ الحيوي في حياتنا الفكرية الذي يكشف المزايدات الغوغائية ويعرّي اللغة من مفرداتها الميتة، ويدفعنا إلى البحث عن مخارج فعلية لأزماتنا السياسية والفكرية والحضارية. هذه الإستفزازية نفسها نجدها في أدبه، مع المتشائل الذي يجمع دون كيخوتة وشفايك وجحا وكانديد. فالسخرية، يقول، «هي مانع الصواعق الذي أنقذني من الاحتراق وأنا أكتب عن مأساة شعبي».

في السنوات الأخيرة ابتعد إميل حبيبي عن السياسة. أو هذا ما كان يتمنّاه. وحاول أن يرجع نهائيا إلى الأدب. «سرايا» كما راح يردّد. لكن ملجأه الحقيقي كان البحر. بحر حيفا. كان يستقل مركبه ويذهب إلى الصيد. طلباً للهدوء والسكينة. المناضل المتعب لم يكن يشتهيه إلا بحر حيفا الذي يرقد اليوم قبالته عند سفح جبل الكرمل. كأنما ليتمثّل المكان ويتلاشى فيه. كأنما ليتمسّك بهوية المشهد البحريّ الذي سكنه حتى النهاية.

(*) الكاتب لبناني، وهو المحرر الثقافي لمجلة «الوسط» اللندنية.



حيفا، في مكتبه في «دار عربسك للنشر»، نيسان 1993
تصوير: سهام داوود.

يحيى يخلف

مالىء الدنيا وشاغل الناس

رحل إميل حبيبي الذي ينتمي إلى جيل العمالقة، رحل مالىء الدنيا وشاغل الناس، رحل ولكنه بقي في حيفا.

كان أديباً مبدعاً، وكان ينتمي إلى تيار الواقعية السياسية في مواقفه، لذلك تعرض إلى كثير من النقد القاسي، وتعرض إلى نقد ظالم تعامل مع مواقفه السياسية لامع أعماله الأدبية. كان هناك من تربّص له، ويبحث عن فجوة لا لمحاورته وإنما للحط من مكانته كمبدع عملاق شغل موقعاً بارزاً في لوحة الأدب العربي المعاصر. حتى أن أحدهم بنى على خطأ مطبعي دراسة نقدية اتهم فيها إميل حبيبي بأنه معادٍ للعروبة!

لقد تحلّى إميل حبيبي بالجرأة في مواقفه، إقتناعاً منه بأنه يقوم بهجوم لتوسيع دائرة المؤيدين لحقوق شعبه في المجتمع الإسرائيلي. لكنه في مقالته الأخيرة التي نشرها في مجلة «مشارف» التي تصدر في حيفا والقدس أعاد النظر في تلك القناعة، أعلن خيبته من إمكانية إستمالة الكتّاب الإسرائيليين أو إلزامهم القيام بواجبهم في التضامن مع شعبنا العربي الفلسطيني. وذلك حين وجّه نقداً شديداً للكاتب الإسرائيلي يزهار سميلانسكي صاحب رواية «خربة خزعة» التي عرّت ممارسات القوات الإسرائيلية في حرب 1948.

كان إميل حبيبي يرى في يزهار سميلانسكي صديقاً يمكن كسبه لتأييد حقوق الشعب الفلسطيني، لكنه في مقالته الأخيرة شكّك في نقاء الضمير الذي كان يراهن عليه لدى سميلانسكي وغيره من الكتّاب. متّهماً هذا الأخير بأنه طعن نفسه طعنة ذاتية إنتحارية حين اتهم

الشعب الفلسطيني بأنه من «أكلة لحوم البشر» بعد العمليات الأخيرة في القدس وتل أبيب ومسقلان.

كان الراحل فلسطينياً مخلصاً لشعبه، وكان وطنياً صادقاً، مهما اختلفنا مع جرأته ومع إندفاعاته، وسيظل حبيبي سنديانة جذعها في السماء، وجذورها تضرب في أعماق الأرض، ولذلك طلب في وصيته أن يدفن في حيفا، وأن يكتب على شاهدة قبره: «باق في حيفا».

(*) الكاتب روائي فلسطيني، وهو وكيل وزارة الثقافة الفلسطينية.

إبراهيم عبد المجيد

متفرّد في الإبداع

على الرغم من بعض المواقف التي طالعنا بها إميل حبيبي في السنوات الأخيرة، لم أستطع أن أتخلّص من الإحساس القديم الذي غمرني حين قرأت «سداسية الأيام الستة» بعد الهزيمة.. في ذلك الوقت، جاء هذا العمل واحة من التفاؤل والأمل، وسط صحراء الحزن التي كانت تحاصرنا، والتي كانت آثارها واضحة في نص الأديب الفلسطيني الراحل.

وظلّ هذا الإحساس ينتابني لاحقاً كلما قرأت لحبيبي، من «الوقائع الغريبة في إختفاء سعيد أبي النحس المتشائل» إلى «خرافية سرايا بنت الغول» مروراً بـ «إخطية» أو بالحوارات الصحافية، أو ببعض مقالاته الذي كنت أقع عليها مصادفة، هنا أو هناك. وألتقيه في القاهرة مراراً، فكنت أطالعه بالحبّ القديم نفسه. لم أماتنه أبداً، ولم أفتح معه نقاشاً من أي نوع في السنوات الأخيرة، ولم أعبّر له سوى عن إعجابي الشديد بفنه. كنت أعرف أنه يعيش حياة غير حياتنا، فهو في قلب المجتمع الإسرائيلي، ويصمد كل هذا الصمود. فهو إذاً جدير بالتحية، فهناك من هو بعيد جداً عن المجتمع الإسرائيلي، ولم يصمد يوماً واحداً.

إميل حبيبي حالة فنيّة وأدبيّة قائمة بذاتها، فهو متفرد في الإبداع؛ أعماله من أجمل التجارب التي زاوجت بين التراث والمعاصرة، وقلمه من أبلغ الأقلام الساخرة، وهو من أرشق المتلاعبين باللغة، حوّلها من سطور مرصوصة إلى مقطوعات موسيقية فاتنة. إنّه واحد من التجريبيين الكبار في فن الرواية العربية، وواحد من المناضلين الكبار في فلسطين العربية، ووفاته خسارة كبيرة، لكن من الذي يستطيع الإعتراض على الموت؟

(*) الكاتب قصصي وروائي مصري.

فاطمة المحسن

ما أحوجنا إليه

«آخرون.. هؤلاء أنا. الصحف لا تسهو عليّ. فكيف تزعم أنك لم تسمع بي». هكذا يكتب صاحب «المتشائل» على لسان بطله سعيد. كان إميل حبيبي هو «الآخر» في المشهد الفلسطيني الناقص أبداً، في الأمس واليوم وغداً. فكل منّا يرى الفلسطيني مثلما يشتهي، يشكّله بعجينة المخيلة لا بصلصال الواقع. والأديب الراحل الذي أراد أن يدخل مسرح الحياة السياسية والأدبية لاعباً يقلب أحجار الواقع بيديه ويعماركة غربته، كان يكتشف في كل مرة أن لعبة الوهم الملحاحة تناديه لكي يدخل الصورة العربية المعدّة سلفاً، من دون هوامش وزوائد واستئنافات. لا تقبل «المحبة العربية» بأقل من عالم الشهادة والغيب، وترفض أن ترى الضحية بغير هذا المرأى. هذا ما تفرضه الجماهير العربية الهادرة من المحيط إلى الخليج، تلك التي تحمل أقفاص التول الفلسطيني على أكتافها، وتدلل بلابله المغرّدة وتزيّن أجنحته بألوان الطواويس.

إميل حبيبي ربما بين قلة قليلة لم تنافق لهذه الجماهير، ولم تغذها يوماً بالأكاذيب. هل كان إميل حبيبي زائداً في الكنيست الإسرائيلي؟ هل كان حلية في جيد دمقراطية دايان وغولدا مئير؟ المؤكد أنه كان بعيداً عنّا، في ذلك الركن من العالم الذي احتوته غياهب الإحتلال حتى نسينا صورة أهله. محمد بكري، الذي جال العالم بمونودراما مأخوذة من «المتشائل» كان يردد: نحن فلسطينيو الـ 48 مختلفون، لا يمكن أن تفهمونا، كفّوا عن رؤيتنا بمنظاركم. واليوم سيبدأ معظم المشاركين في رثاء إميل حبيبي، من اللازمة نفسها: «أنا أختلف معه سياسياً، ولكنّني سأرثيه». وهذا الإعتذار في حقيقته إعتذار مصادرة، كأن الإتفاق شرط القبول!

إن كان لحبيبي من إنجاز يدرج إسمه في قائمة المهمين عربياً، فهو عمل روائي كان هو الإدانة الحقيقية للوجود الإسرائيلي برمته، إدانة إبداعية بكل ما تحويه الكلمة من أبعاد جمالية. فالذين أرادوا أن يجدوا لهم هامشاً في تلك المعادلة الصعبة حتى الموت، معادلة فلسطين وإسرائيل، كانوا يحملون أقنعتهم ويلعبون بها على مسرح الحياة العربية. وإميل حبيبي كان مقاتلاً من دون أقنعة، ولا أدوار. فما أحوجنا إليه، مهما اختلفنا معه، كما هو، من دون أن نصادره، أو نزايد عليه.

(*) الكاتبة ناقدة عراقية.

سمير سعد (*)

هل رأى سطوة اليأس على الحنين؟

سريعاً أزهر لوز «سعيد أبي النحس المتشائل» في الكتابة الروائية العربية، يطعمه المرّ الخاص المعجون بنكهة أرض لم يبارحها لا بالجغرافيا ولا بالتاريخ، ولا بالذاكرة التي تغالب على تلويتها حنين جارف ويأس كبير. فكتب نوعاً خاصاً جداً من الشوق الذي لا يعرفه إلا من يكابده. على حد انتباه أحد البيوت الشعرية المعروفة. فهل كتب إميل حبيبي شوقه المأساوي في أحشاء وضعية من الإلتباس، إلتماساً لوضوح ما؟

على أي حال، تبقى الوقائع الغريبة لاختفاء ذاك المتشائل نصاً جديداً لحضور فن روائي توهج في الإحتراق بنارين: نار ضوضاء أهلية لا تسمع غير صوتها، ونار عدوانية إسرائيل التي كان آخر مسرح لها أرضنا اللبنانية. فهل رأى إميل حبيبي بعينيه الودّعتين سطوة اليأس على الحنين الذي لم يفض أصلاً إلى غير الوراء والخلف؟ بإزاء السماوات الطيّارة الإسرائيلية بامتياز، والتي لا تتثات من غير إنتقامها من الأرض، وتستقي الأساطير المضادة. سعى المتشائل بسخرية حبيبة إلى تحرير مخيلة الإبداع الإنساني من قيد الميثولوجيات وسحرها الذي ما زال يزيّن للناس التنقيب عن الهوية في أصل الخليقة. وعندما انتبه إلى تهافت الإعتصام بتناول محض الأيديولوجيا وسحرها الخلّاب الآخر، اكتملت غرابية وقائع الإختفاء، ومأساوية وقعها على هذا الإنسان المبدع الذي حلّق بأجنحة مختلفة.

(*) الكاتب روائي وسياسي لبناني.

فريدة النقّاش

رحل قبل تحقّق الحلم

إميل حبيبي واحد من أكبر كتّاب العربية أصحاب المخيلة الفنية والمأساة الواقعية، وهذا الفنان الكبير زاوج بين عالمي المخيلة والمأساة، فكتب أدباً عصرياً يضرب بجذوره في تراث الثقافة العربية الإسلامية، خصوصاً في فترات إزدهارها، وراهن طيلة حياته على أن ما يبقي الشعب الفلسطيني حياً وقادراً على مقاومة أعتى أنواع الإستيطان والإستعمار، هو إرتباط هذا الشعب العربي العميق بالأصول التقدمية لثقافته التي أعانته على تكوين تراث روحي وأخلاقي لا ينضب، فهذا الإرث ساعده على الصمود وعلى إبتداع أشكال المقاومة، وعلى البقاء فوق أرضه على الرغم من كل أصناف الإضطهاد والإستعلاء القومي.

إميل حبيبي ابتدع في فن السخرية أسلوباً فريداً، خاصاً به، لم يسبقه إليه أحد، ولم يستطع أن يقلده أحد، فهو أسلوب قائم على المفارقة والمقابلة بين ما هو مأساوي، وما هو باعث على السخرية، وهذه الفضيلة الفريدة في أدبه، والتي بنى على أساسها شخصيته الفريدة، تعود إلى معرفته العميقة بالتراث العربي الإسلامي وبفنونه المختلفة، وسوف تبقى «المتشائل»، روايته الكبيرة، واحدة من عيون الإبداع الروائي العربي، حتى أن هذه الرواية، بما تحتويه من عوالم وشخصيات وأجواء، فتنت الأدباء الإسرائيليين أنفسهم وجعلتهم يصرّون على ترشيحه لنيل جائزة بإسم الدولة الإسرائيلية.

ومهما كان رأينا في المواقف السياسية المتقلبة التي اتخذها الراحل الكبير، في أثناء هذا الحدث أو ذاك، فإننا لن نختلف أبداً على قيمة أدبه العظيم الذي أضاف إلى الثقافة العربية، وجعل صاحبه فارساً للغة وللتعبير الأصيل عن الهوية العربية، وإنه لأمر حزين أن يرحل إميل حبيبي بعد الموت المأساوي الفاجع لرفيق عمره الشاعر توفيق زيّاد، قبل أن يشهد أي منهما ميلاد الدولة الفلسطينية المستقلة، أو عودة الشعب الفلسطيني من الشتات إلى أرض وطنه، وهو الحلم الذي وهبه كل منهما عمره وأدبه وفنه.

(*) الكاتبة ناقدة مصرية.

خيري شلبي

عبقرية فذّة

يقف إميل حبيبي في طليعة الروائيين المحدثين الذين عملوا جاهدين على تطوير الرواية العربية. ومن حسن حظنا أنه يُحسب على جيل الستينات. صاحب الدور الأبرز في تحديث الرواية العربية، لكونه بدأ الكتابة متأخراً. ومن الواضح أن اشتغاله في السياسة هو الذي أخّر وصوله إلى الأدب سنوات طويلة. فليس من السهولة في شيء أن يكون مواطن عربي فلسطيني عضواً في الكنيست الإسرائيلي عن أهل بلده المحتل.

كان أول عهدنا به من خلال «سداسية الأيام الستة». رواية قصيرة، ولكنها أشبه بالحتتة أو البرشامة التي تحتوي على الكثير من العناصر المفيدة. ويجب أن نذكر هنا لرجاء النقاش فضله في تعريفنا بهذا الروائي الكبير. إذ أنّه قام بنشر العمل ضمن سلسلة «روايات الهلال». أيام كان رئيس تحريرها. في عدد مشترك مع كاتب فرنسي لا أذكر إسمه. وكان عنوان روايته «صمت البحر». والروايتان تنتميان إلى أدب المقاومة. وبدا لكثيرين منذ اللحظة الأولى أن إميل حبيبي كاتب متميز، متمكّن من أدواته، قارىء جيّد للتراث، يحمل مشروعاً طموحاً للخروج بالرواية العربية من دائرة التقليد الكلاسيكية.

وإذا كان لـ «السداسية». فضل تعريفنا بكاتب حمل إضافة حقيقيّة للرواية العربية التي كانت آنذاك محصورة بين نجيب محفوظ في القاهرة وحنا مينه في سورية، فإن «المتشائل» هي التي بلورت شخصية حبيبي الروائية. فهي رواية شديدة التفرّد والغنى، تنطوي شخصيتها المحوريّة على تناقضات ومفارقات واضحة. كما يشير إسم البطل الذي يمزج بين التفاؤل والتشاؤم. وهذه الشخصية تقابلها تركيبة درامية. فأمامنا شخصية عربية كأنها طالعة من ألف ليلة وليلة والسيّر

الشعبية، نرى في كلامها وأفكارها وسلوكها مدينتي البصرة والكوفة بما لهاتين المدينتين من دلالات نهضة علميّة بعيدة.

تكمن عبقرية حبيبي الفذة في خلقه واقعاً موازياً للتاريخ العربي، يجمع فيه كل العناصر التي تثير الحمية والنخوة. كما أنه استطاع أن يجمع من هذه العناصر الدرامية ما يشبه البصقات الموجّهة إلى وجوهنا جميعاً. والأرجح أن رواية «المتشائل» لم تتكرر عند إميل حبيبي. وربما كان إشتغاله في السياسة هو الذي أحبط موهبته. كما أن الواقع العربي المتدني الذي حكم على القضية الفلسطينية بالموت، كان له دخل كبير في التعتيم على المخيلة العربية.

(*) الكاتب روائي مصري.

محمود شقير

لو أننا كنّا أكثر تسامحاً

حين دخلنا «مستشفى العائلة المقدسة» في الناصرة لزيارته، قبل ثلاثين ساعة من موته، كان واضحاً من إبتسامته الواهنة أنه يغالب آلاماً شديدة، كنّا نعرف، من تقديرات الأطباء التي لم يكن يعلم بها، أنه على قاب قوسين أو أدنى من الموت. إبتساماتنا الحزينة كانت تفضح الموقف، لكنه كان يتجاهل ذلك، على الرغم من حدسه بالنهاية المقتربة، وبدا كما لو أنه يتأهب للذهاب معنا للتمشي في شوارع القدس القديمة، أو لحضور حفلة موسيقية في واحد من قصور الفن في موسكو، أو لتناول العشاء في أحد مطاعم براغ.

راح نعيم الأشهب يتحدث على مسمع منه، عن أول لقاء حزبي لهما في القدس، حين جاء إميل إليه متخفياً عن عيون رجال الأمن الإسرائيليين في الأسابيع الأولى التي أعقبت حرب حزيران 1967. وكان إميل يؤكد على صحة الرواية بكلمات قليلة ينتزعها إنتزاعاً من داخله، ودونما حاجة لإجهاد نفسه في التذكر، كأن هذا الأمر حدث البارحة. وكنت أشير إلى آخر ندوة شارك فيها في مركز الفن الشعبي في مدينة البيرة، فأكد لي أن سهام داود، زميلته في مجلة «مشارف»، تعمل الآن على مراجعة مواد الندوة لنشرها في العدد المقبل من المجلة، ثم لم يلبث أن زفّ إلينا بشرى عزيزة على قلبه، هي أن الشاعر محمود درويش في الطريق إليه من عمان، كانت الزيارة مقرّرة منذ فترة، بعد الحصول على إذن السلطات الإسرائيلية، للمشاركة في فيلم وثائقي عن تجربة حبيبي الأدبية والإنسانية.

فيما كانت الجنازة تقطع شارع توفيق زيّاد في قلب الناصرة، تدفقت في رأسي الصور والمحطات والذكريات. الندوات العديدة التي كان إميل حبيبي يضفي عليها جواً من البهجة. زيارتنا إلى موسكو

سنة 1987 للإحتفال بذكرى صحيفة «البرافدا» الناطقة بلسان الحزب الشيوعي السوفييتي آنذاك، وكنا يومها منجذبين، أيما انجذاب، إلى البيريسترويكا التي لم تعمر طويلاً. في تلك الفترة كان الحزبي الملتزم حبيبي بدأ يتحرر من تزمّته، ويفطن إلى أن مكانه الحقيقي هو في ميدان الإبداع.

الزوابع الهائجة التي ثارت في وجه إميل حبيبي، بعد موافقته على تسلم جائزة دولة إسرائيل للإبداع. يومها وقف إميل موقفاً شجاعاً في الدفاع عن وجهة نظره. كان الرافضون لموقفه يرون في قبوله الجائزة تكريساً لـ «التطبيع الثقافي» - هذا المفهوم الملتبس حتى اليوم! - وكان يرى فيه تكريساً للأدب الفلسطيني واعترافاً به. كما أن قبول الجائزة يقع في دائرة الواقعية السياسية التي ظلّ حتى لحظاته الأخيرة مؤمناً بها، لاقتناعه بأنها السبيل الممكن لتجنيب الشعب العربي الفلسطيني مزيداً من الويلات والنكبات، ولتمكينه من إحراز حقه في تقرير المصير والإستقلال.

الآن، ونحن نفتقد إميل حبيبي، أشعر أن بعضنا قسا عليه في السنوات الأخيرة، التي ذقنا - كلنا تقريباً - المرّ من ثمارها، وكان ينبغي علينا أن نكون أكثر تسامحاً وأكثر إستعداداً لقبول الإجتهادات المخالفة التي كان يتبناها إميل حبيبي من دون حرج. لكن عزاءنا اليوم أن صاحب «المتشائل» ترك لنا زاداً ثقافياً ستنهل منه الأجيال المقبلة بشغف وفضول. إن أبا سلام بيننا. لم يغب عنّا ولن يغيب.

(*) الكاتب قصصي فلسطيني.

بهاء طاهر

حضور طاغٍ

عرفناه ككاتب قبل أن أعرفه كإنسان، مع «السداسية» و«المتشائل»، ووجدنا فيه نَفَساً جديداً من الأرض المحتلة التي كانت تقتصر معرفتنا بإبداعها على الشعراء.

كان كاتباً موهوباً، وقيّض لي أن ألتقيه في مؤتمرات ومدن كثيرة في العالم، فوجدت فيه إنساناً بالغ العذوبة والرقة، له حضور طاغٍ ويمتاز برحابة الصدر ويعترف للآخرين بحق الإختلاف معه، وكنت من هؤلاء، إذ اختلفنا حول القضية الفلسطينية، لكن هذا الاختلاف لم يفسد علاقاتنا الإنسانية، لذلك أصابتني دهشة من الإتهامات المتبادلة بينه وبين بعض الشعراء والكتّاب.

لا أعتقد أن أي اختلاف سياسي يؤدي إلى إنكار ما أسهم به إميل حبيبي في الأدب العربي. كان إسهاماً بارزاً ومتميزاً بجميع المعايير. أما الإنسان، فستظل فجيعتي به جرحاً نازفاً يضاف إلى جراح كثيرة أخرى، أثارها رحيل أدباء كبار مثل يحيى الطاهر وصلاح عبد الصبور.

(*) الكاتب روائي مصري.



القاهرة، مع نجيب محفوظ، 1989/1/14.
الصورة من أرشيف «دار مروسك للنشر»، حيفا.

لطيفة الزيات

براعة منقطعة النظير

سوف نفتقد في إميل حبيبي الكاتب الذي استطاع أن يستخدم التراث في القص ببراعة منقطعة النظير، كما استطاع أن يغني المكتبة العربية بأعماله الشامخة، وإن بقي إختلافنا معه قائماً في المواقف التي اتخذها، وخاصة في السنوات العشر الأخيرة فيما يتعلق بدفاعه عن الدولة الإسرائيلية، وهو دور قام به إميل، إلا أن المرء لا يقدر إلا أن يختلف معه بشدة.

(*) الكاتبة أديبة مصرية.

نتان زاخ

ثم افترقنا، كل إلى خيمته

بموت إميل حبيبي انتهت «مرحلة الأسود»
في حياة العرب الفلسطينيين في إسرائيل

إحدى المخاطر المهنية الصعبة التي تواجه الأديب الذي يعمر طويلاً تتعلق بأنه يتحول، في غالبية الأحيان، وليس بإرادته، إلى راث لأصدقائه، ومنهم القريبون جداً. وهكذا، وقبل أن تستطيع إدراك الخبر الصاعق، تلفي نفسك مطالبا ومن ذالك أيضاً بترجمة الشعور إلى كلمات لا تستطيع أبداً أن تستنفده.

فقط من يومين أو ثلاثة، جلست بجانب سرير المرض في المستشفى، تستحضر الذكريات المشتركة في محاولة فاشلة للترفيه عن الحي، واليوم أنت مطالب بتلخيص مشروع حياته، وقبل أن تستطيع التسليم بحقيقة أنك لن تراه أبداً بعد الآن، تجدك تكتب «كان، وكان»، وقد كان!

حتى يوم أمس كانت علاقتك معه جزءاً من عالمك وحدك، وها أنت مضطر، بغير إرادتك، للإنضمام إلى جوقة المؤبنين على الملأ وغالبيتهم أصدقاء حقيقيون، لكن قلة من بينهم مرمرت حياته، ولكنها الآن، وربما بدافع الإحساس بالذنب، تراها تمجده كأنها كانت من لحمه ودمه.

* *

وكم هو محق صديقي شلومو شفا عندما يعود ويكرر «آيته» الحكيمة، «ملأ رثينا أصدقاءنا الموتى وهم على قيد الحياة»، ومن لا يسلك على هذا النحو، من الأنسب له، برأيي، أن يلزم الصمت وألا يقول كلمة رثاء واحدة، إلا إذا كانت كلمة ندم أو حساب مع الذات.

لكل هذه العوامل فرضت على نفسي ألا أنطق بكلمة رثاء أخرى على إميل حبيبي الذي رثيته حتى

الآن في ثلاث وسائل إعلام.

وها أنا أنقض عهدي.

بموت إميل حبيبي انقضت مرحلة في حياة العرب في إسرائيل. مرحلة الأسود. وبدأت مرحلة جديدة، وأتمنى ألا تكون مرحلة أذناب الثعالب. لم يكن لشعبه أبداً قائد مثله يدعو ويسعى من أجل المصالحة العادلة بين الشعبين. إنسان يندب الخسارة لكنه يعرف أن ينظر مباشرة إلى المستقبل الحتمي. دليل سلالة إسماعيل. ومن كشعبه بحاجة إلى الدليل في هذه الأيام السوداء، الأيام الدموية.

* *

كان هو الذي بادر إلى إتفاق السلام الرمزي بين إسرائيل وبين فلسطين، «دولتان للشعبين»، الذي وقّعه كل زملائه في لجنة المبدعين الإسرائيلية - الفلسطينية. إتفاق اعتمده عرفات لاحقاً في برنامجه السلمي.

كان هو الذي بادر إلى وفد الكتاب الإسرائيلي - الفلسطيني الأول من نوعه إلى موسكو.

وكان هو الأول الذي وافق على تسلّم جائزة إسرائيل - وبالذات من يدي يتسحاق شمير - مع الإدراك التام بالمخاطرة الشخصية التي يأخذها على عاتقه لأجل شعبه وثقافته.

وكان هو الذي رفع الراية في أول مظاهرة أمام معسكر أنصار - كتسيعوت. وكان هو، الواحد الوحيد، الذي حذّر شعبه من العودة إلى أخطاء الماضي، أيام حرب الخليج. وكان هو الذي أعطى تأييده غير المحدود لإتفاقيات أوسلو منذ البداية. وقبل ذلك، كان هو، مع مجموعة من رفاقه في الحزب الشيوعي، الذين تبنّوا قرار التقسيم، بل واضطروا للإختباء خشية انتقام التعصّب الأعمى.

وإضافة إلى كل هذا، فقد كان هو - أيضاً، مع مجموعة من رفاقه في الحزب الذين لم يَعدوا على النخبة المثقفة التي خرجت من باب شعبها مهزومة نحو الضياع، في العام 1948 وبعده، بل علمته على الصمود والتمسك بالوجود والتبقي للبقية - مهما كان ذلك قاسياً وفظيعاً.

فقط له، ولمجموعة قليلة من المثقفين والمبدعين الذين لا يليتون، يجوز أن نحفر على شواهد قبورهم، كما طلب هو، كلمات: «باقٍ في حيفا».

«حيفاه المفقودة»، كما أسماها.

* *

وفي حزبه، أيضاً، بقي «غالبية مؤلفة من واحد»، ربما من إثنين أو ثلاثة. شيوعي، غير دوغماتي - وكم كان مثلهم عندنا؟! شيوعي وبوهيمي. في حديث شخصي على زجاجة ڤودكا - ومن المسموح اليوم أن أكشف ذلك - شكا منير قلنز على مسامعي، في بيته، عندما حضرت في مهمة مصالحة أخيرة قبل

تحية إميل حبيبي من رياسة تحرير «الاتحاد»، أنه في اجتماعات المكتب السياسي، اعتاد إميل أن يستلقي على كنبة في الغرفة ويغفو، هذا في حين أن رفاقه تباحثوا في القضايا الكبرى التي تشغل العالم، وكان يستيقظ من مرة لأخرى ليحث رفاقه «يلّلا، يلّلا» أي، أيقظوني عندما تنتهون من الثرثرة ونبدأ باتخاذ قرارات عملية.

فلنر قدرّ، وربما استلطف رفيق دربه، لكنه لم يستطع، حتى اليوم، أن يغفر له كفره بقدسية خطايا الإتحاد السوفييتي، وخلافاً له، ابتسمت في سرّي لسماعي ذلك، لأن ما قاله عزز لدي تقديري لإميل. مايا كوفسكي كان سيقف مع إميل وليس مع فلنر.

**

موشيه سنيه عمل كل ما في وسعه للإقتراب من إميل، لكنه واجه حاجزاً من الشك الطبيعي، وبعد الإنشقاق في الحزب (ميكونس وسنيه من جهة، وفلنر وإميل ورفاقه العرب، الذين جاءوا لزيارته في سرير المرض في أيامه الأخيرة، من جهة أخرى)، اعتاد أن يعلن «أترون، كنت محقاً».

متشكك، ذكي وحاد الحواس، شك إميل حبيبي في موشيه سنيه الأيمهد في الامتحان، وما هي البريسترويكا تأتي لتقلب كل شيء رأساً على عقب، وهو الذي عدل رأيه، ألفى نفسه منحىً ومعزولاً.

**

في صبانا سكنا في حيفا، وبيننا مسافة بضع مئات الأمتار في خط موازٍ، هو في حي عباس وأنا في «أرلوزوروف 100»، ولكن، أي هوة انفتحت بين ابن الـ 14 المنخرط في «هشومير هتسعير» و«مجنون» في تعاليم «ساتياغراها» لغاندي، وبينه، النشيط الشيوعي- الستاليني ابن الـ 23 عاماً. لم يكن ذلك فارق السنّ وحده. فقط بعد حرب لبنان، واحدة من حروب لبنان، وجدنا أنفسنا في المتراس ذاته.

ومن يومها لم تفترق طريقانا.

في مجموعتي الشعرية الأخيرة، قصيدة بعنوان «في حقول أنذاك، ربما»، من العام 1988، ربما القصيدة الشخصية الوحيدة التي كتبتها في حياتي، من ذكريات تلك الأيام البعيدة في حيفا الإبتدائية. قبل النهاية وجدت الأسطر التالية:

«وكل هذا خرج مني على الورق بعد ليلة/ مع إميل وباقي أصدقائي عندما شربت مرة أخرى مما منعني عنه الأطباء/ وسقط كل المحجوزين والحواجز/ كي أحبه وسكنت قبل سنين غير بعيد من المكان حيث سكن/ لكن كانوا يومها عرباً وكنت يهود/ «منمجون» وهذا أيضاً من النجوم أن تتصل روحي بروحه ولكن فقط/ بعد سنين، ولكنا متصلون قليلاً ومنفصلون كثيراً/ لأن الألم يجمع بين الأصدقاء ويفرق أيضاً/ وصديقي حدثني عن بلاد بعيدة (المغرب) فيها/ استقبلوه استقبال الملوك/ وإن الملك جاء بنفسه وكلّمه فصار هو أيضاً من الملوك/ بعدها، احتفى كل بنفسه وكنا حزينين/ ولم

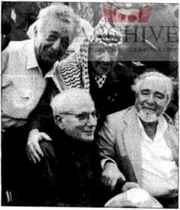
نعلّق كمنجاتنا لأنه لم تكن هناك أشجار / وكانت الساعة متأخرة ومرة أخرى صرنا غرباء / وحاولنا أن نخفي ذلك فصرنا مختنين / وبعدها افترقنا كل إلى خيمته كما يقولون».

«لقد كانوا يومها عرباً وكنت يهود» . وفعل الزمن فعلته، وعندما التقينا لم نفترق أكثر.

(*) الكاتب من أكبر الشعراء الإسرائيليين، حامل جائزة الإبداع الإسرائيلية، مقيم في حيفا.

(عن العبرية: مرزوق حلبي)





غزة ـ على رأس وفد «لجنة المدمين الإسرائيليين والفلسطينيين» لاستقبال الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات يوم العودة، 1994/7/2. في الصورة الشاعر نتان زاخ والكاتب يورام كانيوك.
تصوير: سهام داوود وراحيل أفنيري.

يُمنى العيد

رحل إلى حلمه المكسور

«أما بعد، فقد اختفيت، ولكنني لم أمت». هذا ما قاله سعيد، متشائل إميل حبيبي، والأديب الذي كتب «الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل» وكان يختبئ خلف سعيد، لم يمت، لم يمت المتشائل. ونحن الذين قرأناه ما زلنا نسمع صوت «يعاد» تصرخ: «هذه بلدي وداري، وهذا عمّي».

سعيد هو المتشائل وهو إميل حبيبي. وكان هو عمّ «يعاد» وكانت «يعاد» تقيم في بيته. كانت تقول له: «الماء لا يترك البحر يا عمّاه، يتبخّر ثم يعود في الشتاء، يعود أنهاراً وجداول. ولكنه يعود».

مات إميل حبيبي، وماء الحياة الذي تبخّر لا بد أن يعود، فهو في «المتشائل»، في هذه الرائعة من روايات حبيبي التي أغنت السرد العربي بلغتها المدهشة وبأسلوبها الساحر العجيب.

لغة عربية خاصة وأسلوب مميز، لم يموتا.

والمتشائل لم يمت،

ذلك أن سعيد إميل حبيبي عاد،

عاد في وقائعه الغريبة المركبة من يأسه وتفاؤله، من واقعيته وعبثه، من تجربته المريرة وحلمه المكسور.

عاد سعيد إلى حياتنا، نحن العرب، كان في ذاكرة المؤلف، فصار في ذاكرتنا، لأنه منا وفينا، ولأنه صار أكثر من فلسطين، صار أوسع منها، صار.. لأنه عاهد «يعاد» على حفظ ما قالت حين صرخت: «هذه بلدي وداري، وهذا عمّي».

سيبقى سعيد على الرغم من كل شيء، سيبقى عمّاً لـ «يعاد».

وفيه سيبقى إميل حبيبي، هو المتشائل، هو الذي كان عمّاً لـ «يعاد»، هو الذي قال لها حين صرخت هذي بلدي.. «سأحفظها مؤونة للعشرين القادمة»!

لكن العشرين المقبلة طالت عهداً، وكانت كلما أوهمت بأنها انتهت عادت إلى بدايتها.

«ها قد عدنا منذ البداية»، كان قد قال لها، ولم يمت.

ورحل اليوم، مات الرجل، مات إميل حبيبي.

ربما رحل إلى حلمه المكسور، كأنه يستعيد ما قاله سعيد: «وضعت يدي فوق عيني فأغمضتهما حتى لا أرى النهاية كما رأيت البداية».

(*) الكاتبة ناقدة لبنانية.

سليم سلامة

سرقتَ لنا زمننا

للتراب رائحة خاصة مميزة، لكن الصاعقة تبعثرني على حيرة لا فكاك منها،، لأن الحياة ينبغي أن تحيا «فوق الأرض، لا تحت التراب».

مرحباً بك. أهلاً بك. وداعاً وإلى اللقاء. وداعاً ولا لقاء.

هل ستودع ما عرفناه فيك أم سنستقبل ما لم تعطنا فرصة كافية لمعرفته فيك؟! سمعتُ مراراً، مقولة أن «الكبار لا يموتون». لكنك متَّ، ولا يكفيني من هذه المقولة، بالذات، معناها الرامي إلى بقاء الكبير حياً بما يورثه للباقين بعده. ذلك أننا - كما أنت في التأكيد - بشر! ولأننا كذلك، فنحن نبقى بحاجة إليك أنت الإنسان أيضاً، لا إلى عطائك وإبداعك ونتاجك فحسب. نحتاج إلى حضورك الجسدي بيننا، أمامنا، إلى جانبنا، واغفر لنا أنانيتنا هذه، لكنك عاقبت الزمن الذي سرقك فسرقت منا ولنا زمننا الذي لا نزال نحتاجه لنبقى معك وتبقى معنا.

هل نودعك أم نستقبلك؟ - سؤال تنفتح الإجابة عليه على إحتمالات كثيرة، لكنه تساؤل مُلحّ وأنت الذي كنت الأكثر تساؤلاً، دائماً، والأكثر إثارة للتساؤل، ذلك أن التساؤل / الشك كان دينك وديدنك من حيث أنه - في ملّتك واعتقادك - مفتاح بوابات البحث عن الحقيقة، ولأنك جعلت من قولة المعرّي «لا إمام سوى العقل» إنجيلك وقرآنك، منذ زمن طويل.

واغفر لي، أيضاً، ملاحظة أهمسها في أذنك: صحيح أن البعض قد حاصر هواءك و«استبسل» في «تنغيص» عيشتك، لكنك أخطأت حين ظننت أننا قد ارتوينا وأنه قد أصبح بإمكانك مغادرتنا، ألم تعلم - وأنت أكثر من يعلم - أن العطشى لا يرتوون طالما لم ينضب المعين؟! ولم تنضب، بل لم يدانيك أي جفاف!!

فماذا تقول: هل نودعك أم نستقبلك؟

(*) الكاتب صحفي فلسطيني من الكر (الجليل)، وقد عمل بصحبة إميل حبيبي.

رسمي أبو علي

مواجهة يومية مع العدو

بوفاة إميل حبيبي تخلو الساحة الأدبية الفلسطينية من أحد الكتّاب الذين كانوا الأكثر أهمية، والأكثر شهرة. أما الآخران فهما غسان كنفاني الذي سقط في أوائل السبعينات، وجبرا إبراهيم جبرا الذي غيّبه الموت قبل حوالي سنة.

والثلاثة، في رأيي، تنويع على نغم واحد، أو جرح واحد هو الجرح الفلسطيني العميق النازف منذ أواسط هذا القرن. أما غسان كنفاني فكان مشروعاً كتابياً لم يكتمل، وأصواتاً متعددة لم يتح لها الوقت الكافي لتتمازج وتتحد لتصب في إناء واحد، وإن كان أعطى أعمالاً بارزة مثل «أم سعد»، وعدداً من الروايات التجريبية التي كان خلالها لا يزال يبحث عن صوته الأشد حميمية ومعاناة للقدر الفلسطيني التراجيدي.

جبرا إبراهيم جبرا ظل مرتبطاً بجذره الفلسطيني في القدس وبيت لحم، وظل هذا الجذر - الحلم يشده على الدوام حتى عاد للظهور في روايته الأهم «البحث عن وليد مسعود». أما في أعماله الأخرى فإن فلسطينية جبرا تتجلى على نحو روحي تذكّرنا بما كتبه إدوارد سعيد عن سيكولوجية المنفى وإنعكاساتها النفسية والروحية على المنفي.

أما إميل حبيبي فيتميز عن كنفاني وجبرا في أنه ظل في الوطن، وفي مواجهة يومية ومباشرة مع العدو. ويتميز أيضاً في أنه عرف هذا العدو - الخصم معرفة مباشرة، لا مستبطنة أو متخيلة. وهنا يمكن المجازفة بالقول إن جذور النظرة الساخرة أو «المتشائلة» تكمن بالضبط في تفاصيل المواجهة اليومية، وإنعكاساتها على النزعة المقاومة. أضف إلى ذلك أنه متشرّب بالروح الفلسطينية كما تتجلى في الموروث الشعبي و«الخرّيفيات»، والحكايات المتوارثة، ومنها أخذ عنوان عمله الأخير

«خرافية سرايا بنت الغول». ويتضح أيضاً من خلال أعماله أنه مطّلع على التراث العربي إطّلاعاً عميقاً، كما يمكن أن نلمح التأثير الواضح للأدب الأنغلو - ساكسوني على كتاباته عموماً. وهذا الملمح موجود أيضاً لدى جبرا إبراهيم جبرا.

ويقال إن الأدب الفلسطيني عموماً لم يرتق حتى الآن إلى مستوى التراجيديا الفلسطينية، وإن الأعمال المعبّرة عن هذه التراجيديا المديدة لم تظهر بعد.. ولسنا نعرف إذا كان هذا الرأي صحيحاً، أم أنه رأي نظري يتوخّى الطموح، أم أنه يصدر عن نية سيئة، لكننا نعرف أن هذه التراجيديا، في مستواها الفني الرفيع، لم تكن قط بعيدة عن أعمال كتّابنا الكبار، وأولهم، بلا شك، فقيدنا إميل حبيبي.

(*) الكاتب فلسطيني يقيم في الأردن.

نبيل سليمان

خلود المبدع وموت المناضل

الآن يتوحد الحزن في بين موت إميل حبيبي المبدع الذي لا يموت، وبين إميل حبيبي المناضل السياسي الذي مات حقاً.

بعد قليل سوف أدع لسواي أن يندب الثاني، وأنحني أمام الأول الذي يتفرّد ويتخلّد، من دون أن يأبه بنجاح «الليكود» أو «العمل»، ولا بالشغل القبيح أو البهي الذي ستسفر عنه المفاوضات الفلسطينية العربية ـ الإسرائيلية ـ الأمريكية.

من أسر جسد وكون إنفلت إميل حبيبي الأول، ليقطف جائزة الإبداع العربي والعالمي ـ لا جائزة الإبداع الإسرائيلي، كما فعل إميل حبيبي الذي مات حقاً، والمبدع لا يموت، اختار الصبيحة الأولى لعرس قانا، وحشر روحه في أشلاء النعوش ونعوش الأشلاء.

وها هو ذا يشرع روحه المبدعة، من «سداسية الأيام الستة» إلى «سرايا بنت الغول»، يشهد على قانا الجليل وقانا السورية وقانا العراقية وقانا المصرية.. كما يشهد على المبدعين في ازدواجيتهم أو توحدهم، داخل الدوّامة التي تلف تاريخنا الغارق في الدماء.

(*) الكاتب روائي سوري.

رشيد الضعيف

هديّة ثمينة

لم أتابع أبداً سيرة إميل حبيبي عامة، ولا سيرته السياسية بشكل خاص. لا أعرفه إلا روائياً، أعرفه من خلال «المتشائل» خصوصاً، أول عمل قرأته له. أذكر أنني قرأت الرواية وكانت الرايات وقتها لفلسطين، وأذكر أنها كانت هدية ثمينة من الأرض - الحلم. فقرأتها والرفاق والأصحاب، ورددناها بصوت عال، كما كنا نقرأ قصائد محمود درويش ورفاقه شعراء الأرض المحتلة.

جاءتنا يومها رواية عربية، عن هموم ومآس عربية، من أرض عربية - عربية بشكل خاص، لأن حالتها كسليبة كان يضاعف من عربيتها إلى حد أنها باتت، في مكان ما من لا وعينا، منبعاً لكل ما هو عربي، ومقياساً له.

وكان آخر ما قرأت له «سرايا بنت الغول»، وهي الكتاب الوحيد الذي كتبت كلمة منه ونشرتها.

(*) الكاتب روائي لبناني.





في «أيام قرطاج السينمائية»، تونس ـ 1994/11
مع المخرج السينمائي يوسف شاهين والممثلة يسرى.
تصوير: سهام داوود.

يوسف القعيد

ينظر في أعماقه ويكتب

إستفدت من تجربة إميل حبيبي الأدبية إفادة بلا حدود. فهو كتب الرواية التراثية بمهارة واقتدار، إلا أنه أضاف لمسة الكوميديا السوداء، أو الضحك الباكي في الكتابة. وعندما نشر رجاء النقاش في «روايات الهلال» سنة 1968 «سداسية الأيام الستة» لأبي سلام الذي عرفناه فيما بعد بإسم إميل حبيبي، شكلت هذه الرواية القصيرة فتحاً أدبياً جديداً، تبعته أعمال كـ «المتشائل» و«لكع بن لكع» و«خرافية سرايا بنت الغول». وفي كل هذه الأعمال أسس مشروعه الخاص في كتابة نص روائي عربي لا يدانيه فيه أحد.

وعندما قابلته بعد ذلك في القاهرة وجدت طريقته في الحكي قريبة جداً من كتابته. فأدركت أنني أمام فنان أصيل، ينظر في أعماقه ويكتب. كما أنه، إضافة إلى مسيحيته الشرقية وشيوعيته الأصيلة، ارتبط بالتراث العربي - الإسلامي إرتباطاً حميماً، وعرف كيف يستفيد ويتعلم منه ويؤثر فيه أيضاً.

لكني على الرغم من كل هذا الإعجاب الأدبي، رفضت بلا هوادة مواقفه السياسية الأخيرة. رفضت دعوته إلى «فلسطنة» القضية الفلسطينية، لأن في ذلك شق الصف العربي الملتف حول فلسطين. كان يقول إن العرب أخذوا القضية الفلسطينية 40 عاماً، ولم يفعلوا شيئاً، فليتركوها الآن لأصحابها.. ونسي أن ثورة تموز (يوليو) المصرية خرجت من رحم القضية الفلسطينية نفسها! وكنت أيضاً بين الذين شعروا بالإنزعاج عندما قبل أن يصافح الإرهابي إسحاق شمير الذي سلّمه «جائزة إسرائيل». وراعني أن أسمعه يبدي سعادته بالجائزة، باعتبارها تساويه بالإسرائيليين!

ورفضت من دون حدود إصراره التطبيعي بين الجلاّد والضحية. وكان آخر إتصال غير مباشر به،

عندما كلّمني محمد صبيح، سفير فلسطين في جامعة الدول العربية، يطلب مني قصة لمجلته «مشارف»، طلبت من صبيح أن يرسل لي نسخة من المجلة، وعندما أرسل لي العدد الأخير احترت: أين تنتهي إسرائيل وأين تبدأ فلسطين في هذه المجلة؟..

رحمه الله رحمة واسعة.

(*) الكاتب روائي مصري.

محمد نفّاع

«نجم الشمال وبيرق جوري دائم التورّد»

مومئاً في قيلولة الليل وتسلل الهواجس، بعد هاجرة النهار للأول من أيار، هدأ القلب الحي، وعلى الوجه حطّت غبرة الموت، لتظل الكلمات تجدف في الجو المائج الجيّاش، والذاكرة الجيّاشة لبحر الناس، تطل على صرعى قانا وحوامي غزة هاشم وسميه هاشم الشريد، تطل على متعطشي القدس وعلى رفاق الدرب الطويل يكدحون من فجر الأول من أيار وبيارقه الحمراء إلى فجر الثلاثين منه، بعد أن عبروا الثلاثين من آذار الهدار، وإن أردتم أن تعدلوا وتعدلوا فاكثروا، متقدمين مقتحمين عبر غبار العرق للسنين الخوالي والغابر العنيف إلى الآتي المنتظر.

كنت عزيز العطاء كحنان الرؤوم.

فمن خطاب مغروف من معيشة الناس وهمومهم وآمالهم ودفء حياتهم في الزمهرير الصنّبر، وعذوبتها في اللظى المستعر، تنبش فيه المثل والملحة والنكتة والنبذة والحكاية من خشب البيت إلى صحن الدار والتين والعسل والليف المتهدل، تصطف الكلمات بانضباط مُرخى لها العنان فلا تجمع لأنها أليفة، ووليفة.

حاورت وجادلت وقاتلت، سخرت بمنتهى الجدية، صادقت ورافقت بلا حدود ولا خطوط هدنة، خلقت البسمة والقهقهة على الوجوه العاملة بلا ملكات ولا يعاسيب، جاءوا يستمعون إليك من الأرض والورشة وما بينهما من دروب وفجاج، على أجنحتهم الجنى المر الأجاج، وفي حناياهم الحلم البراق فسيحاً كمرج البرواق، وفي أكفهم فراغ الشقوق والشقاء، ونخوة المظلوم على الظالم وثأر القتيل من القاتل، وفي أكفهم وعلى زنودهم صاحب المعالي الرغيف، وبنت الأصل والفصل والحسب والنسب «الاتحاد».

من الخفرات لم تنضج أباها

ولم ترفع لإخوتها شنارا

كلمات سنديسية شائكة، صلبة كعرق السنديان المخضرم، إقحوانية الشذى حاتمية الندى ربيعية الزخم تتفجر شظايا وهدايا عابرة للقارات، مضرجة بالشفق والغسق والألق.

نراك في قصة شهلاء عصماء متشائلة تشهّل الهمم وترنو إلى سمو همتها العيون الحور، مدججة بأشواك القراص الساحر وعظم السمك الحرون وطلاوة الذكرى وطراوة الحبق وخضلة اللبلاب، وأنغام التراث الدفين المسجّى في الأديم والأثير. تنبض به النثيلة بمهابة. كنت نجم الشمال الهادي.

أنت لغة على تلابيب اللسان وذكرى على مفارق القلوب، نسجت منك بيرقاً جورياً دائم التورد أبدي العنفوان، حتى بعد أن تعانق الدخان والضباب وصار الكون بحاجة إلى تجنيد إحتياطي الشموس المهجرة في المحاق وراء الآفاق علها تلثم جبين العتم بغصن العتم.

إمطري حيث شئت فإن خراجك لنا. قال للسحابة الخليفة الرشيد.

حلّقي حيث شئت يا موهبة الإرادة وإرادة الموهبة فإن نتاجك لنا. يقول خلف السلف البالغ عمر الرشد والسبيل الرشيد.

الوسم البدري يسم الأرض بالخضرة، بوشائج الحياة.

وأنت قدمت وابلاً من العطاء، في النطق والمنطق، فوسمت وأوسمت، وطبعاً، يستحيل لتلم وصف الليل إلا على نور شمس تخترق أو شمعة تحترق.

ويذوب الإسم وينوي حتماً على الحور العتيق ويبقى ويخلد إذا كان، وفقط إذا كان الإسم هو الطريق.

طيبة ذكراك، مبدع يراعك، باقٍ إسمك، أنت من أهل البيت الذي بنيت، ونحن على العهد باقون وعلى هذا الطريق سائرون.

(*) الكاتب قصصي فلسطيني مقيم في بيت جن، وهو السكرتير العام للحزب الشيوعي الاسرائيلي.

داليا رابيكوفتش

بموته تقلّص عالمي

في كل لقاء بيني وبين إميل حبيبي وسهام داوود
ينبثق إحساسي بيهوديتي مقابل عروبتهما

كان المرحوم أ. ج. مهندساً، عالماً من سكان حيفا، وتربطه صلات صداقة ببعض أفراد عائلتي. لا يمكنني المباهاة والقول إنه كان صديقي، بسبب الفوارق في السن، وطريقة العيش والنظرة إلى العالم. لكنه في عدة مناسبات، وبخاصة على مدار إحدى السنوات التي سكنت فيها بجواره، أبدى أ. ج. تجاهي سخاءً كبيراً وعبّر عن مزايا لم تكن لتصدر من أفواه الآخرين. وعلى رغم أنني لا أملك الحق لأعلن منه صديقاً لي، فقد أحسست بوفاته أن عالمي يتقلّص. كان أ. ج. بالنسبة لي إنساناً لا بديل له.

**

كذلك لا يحق لي أن أعلن من إميل حبيبي صديقاً لي. وعندما علمت مؤخراً أنه أصيب بمرض عضال، لم أعرف حتى رقم هاتفه في البيت، ولم أسأل عن سلامته. لم يجاهر إميل حبيبي بمرضه، وإذا كان أشرك بعض الأصدقاء برهبة الموت المقترب، فهو لم يُشركني.

لكن إميل حبيبي كان إنساناً أضاء حياتي في مناسبات عديدة. إنسان تحترمه من بُعد، وإذا ذكر إسمه بالصدفة، فهو مثير للدهشة.

مرة واحدة فقط زارني في بيتي، بصحبة شريكته في معظم مشاريعه الجماهيرية، الشاعرة سهام داوود، والممثل محمد بكري، مجسّد «المتشائل». لم أحظَ بزيارات كثيرة مُلهمة مثل تلك الزيارة.

**

في كل مرة ألتقي فيها إميل حبيبي وسهام داوود، ينبثق في داخلي الإحساس بيهوديتي مقابل عروبتهما. كنّا نتجنب الخوض في بعض القضايا. فقد عاش إميل حبيبي واقعاً آخر وله إمتداد تاريخي مختلف، أو أن لديه تفسيراً مختلفاً للتاريخ- وصهيونيتي، مقابل وعيهما الفلسطيني، كانا بمثابة تجربتين حياتيتين جعلهما الحذر الكبير من الجانبين تتجنبان الدخول في مسار التصادم.

ولعل مساهمة إميل حبيبي في منع الصدام كانت أكبر. أن تعيش كعربي إسرائيلي، وحتى أن تكون حاصلاً على «جائزة إسرائيل»، معناه أن تطوّر نسبة معينة من البراعة والمهارة، وكثيراً ما كان يجابه أسئلة مغرضة من الصحفيين. ودائماً كان لديه الجواب لكل سؤال. تعلّم لغتنا ولكننا لم نبذل أي جهد لتعلّم لغته.

أكلنا وشربنا معاً، كما قال ذات مرة رئيس دولة إسرائيل، ولكننا، بقدر ما حاولنا أن نكون إنسانيين، أو عالميين كما ادعينا دائماً، بقينا أسرى المشاعر العامة للأغلبية على الدوام. كان إميل حبيبي وسهام داوود ومحمد بكري أقلية باستمرار، ويتمتعون بذكاء الأقلية. ودائماً ظلّت هنالك أمور لا نتحدث فيها.

الإحترام الذي حظي به إميل حبيبي، مع ترجمة «المتشائل» للعبرية أولاً، وفي السنوات الأخيرة، بعد فوزه بجائزة إسرائيل للأدب- وبقدر ما سعد بذلك- إلا أنه لم يتخلص من ذلك السنام على ظهره. في السنة الماضية، قرأت في إحدى الصحف أن إميل حبيبي كتب مسرحية عن السكان الأصليين لقرية عين حوض واستصعب إنهاءها. ونقلت الصحيفة على لسانه قوله أنه يعتزم إيجاد خاتمة تجعل المسرحية أقل قبولاً على جميع الأطراف. يبدو أن التقدير الكبير الذي حظي به من مختلف الإتجاهات ضايقه وأيقظ في داخله تناقضات رفض بنفسه أن يسوّيها.

* *

أتمنى أن يطمئن إميل حبيبي في راحته الأبدية في ثرى بلاده. وأتمنى أن يكون قد استوفى كتابة المسرحية التي امتزم بها إثارة محبّيه. منذ سمعت بوفاته، غمرني مجدداً إحساس الموت داخل العائلة. لم نكن أصدقاء بالمعنى الكامل، ولكن حتى لو كانت لدى إميل تصورات أخرى، فقد كنّا عائلة مختلطة.

منذ ووري إميل حبيبي التراب، في جنازة جرت في مقبرة صغيرة محاطة بأشجار سرو ظليلة، ومنذ أن أنزل الجسد إلى الحفرة وغمره التراب- أبحث عن سهام داوود بالتلفون ولا أجدها في أي عنوان.

* *

لا أتذكر متى كان لقائي بسهام بالضبط قبل العديد من السنين. فتاة جميلة، صافية البشرة، سوداء الشعر والعينين. ترجم ساسون سوميخ الكثير من قصائدها، لكن الترجمة أبقت أشعارها

غامضة، يبدو أنني بحاجة إلى مفتاح عربي لكي أفهم قصائد مجموعة «أعشق بالحبر الأبيض».

في كل مرة شاهدت فيها أصابع سهام التي تستعملها في الكتابة، أذهلتني دقتها، وسهام تظهر وتختفي بطريقتها، ولا أعرف الآن إلى أين ذهبت بأساها العميق.

أريد أن أقول لها ما لا أفلح بقوله عبر الهاتف الذي لا يرد: سهام، أنتِ أختٌ لنا.

(*) الكاتبة أبرز الشاعرات العبريات في إسرائيل.

(عن العبرية: محمد حمزة غنايم)



حيفا ـ في مكتبه ـ 1996/4/10
(مع مديرة مكتبه: سهام داوود)
تصوير: أمون بروشه

أحمد دحبور

إميل حبيبنا

كأنني شريك في إثم.

عرفت، مصادفة، أن شهوره معدودة، وكان، شأنه دائماً، مليئاً بالحياة، لولا شحوب يصعب إنكاره، واختلاف في نبرة الصوت مسح تلك «الرهجة» المتميزة التي تبلغك، على مبعدة أربعين متراً، إن في هذا الحي أبا سلام..

سلاماً يا أبا سلام، من أين أبدأ؟ وأي تبجّح هذا وأي مكابرة، أن أدعي القدرة على البدء؟ هل أهرب إلى البلاغة التي لا تؤدي إلى البلاغ؟ أم أدعي الحكمة وأفلسف الموت والحياة؟ أم أوي إلى الحزن الذي سيشاركني فيه كل من عرفك؟ هل ألحق بأسلوبك في الإستطراد، فألف وأدور حتى الدوار، لافاجئك بالفكرة التي تشتعل في دمي؟ ولكن هيهات، فهنالك إميل حبيبي واحد، ومن الصعب الصعب تقليده حتى ونحن نرثيه، ومع ذلك فأنت من أبلغنا بيعاد الأولى وإخطية الثانية، وحتى في الجهة المقابلة، عند سلك الشوك، كان هنالك «شمامير» كثيرون.. إلاّ أنت.. فأمام لهب الإبداع، لا تتطابق بصمتان، وليس لدى بني فلسطين، والعرب، إلاّ إميل حبيبي واحد..

يا أبا سلام.. دعني أتخلص من هذا المأزق باللجوء إلى بعض الذكريات، مع أن هذه بدورها تحشد لي جيشاً من المنافسين لا أول له ولا آخر، فقد أخذت من إسمك النصيب كله، ولم تكن «حبيبي» فقط، بل حبيبنا، على مختلف الأجيال، جميعاً، وها أنت تمد لسانك لي ساخراً، وتقول: لقد نجوت.. وحقيقية أعترف بأني نجوت، فقد تمكنت من مصالحتك قبل فترة كافية، وقبل أن أعرف، شهد الله، بالمرض الذي لا يسمّى..

يا أبا سلام..

لقد ذكرت إسمي مرة في خرافية «سرايا بنت الغول»، وبحدسك التاريخي المتفائل أبداً،

أشرت إلى الإسم معرفاً بأنني شاعر فلسطيني يقيم في تونس مؤقتاً، ولقد كانت «مؤقتاً» تلك بلسماً لروحي، لا لأننا لم نحب تونس الحبيبة لا سمح الله، ولكن البلاد اشتاقت إلى أهلها، ويشهد على ذلك فرن وادي النسناس الذي تحدثت عنه كثيراً حتى كدت ترسمه في «إخطية»، أما أنا، الذي «كنت أقيم مؤقتاً في تونس»، فقد استمعت إلى حكايتك مع محمود التونسي، ولا أدري ماذا جرى لذاكرتك فجعلت إسمه أحمد المصري، ولكن بعيداً عن الجدل (ألا نزال نتجادل حتى وأنت في دار الحق؟) يظل من حق قرائك أن يعرفوا الحكاية..

قلت لي أنك كنت في أثينا، وأحببت أن تسير وحدك مسافة ما، وإذا بك أمام بناية قيد الإنشاء، وقد كتب على أحد جدرانها بالعربي إسم شخص.. محمود التونسي، ولقد وقفت حائراً أمام مفاجأة ذلك الخط الذي خاطبك وكسر وحدتك، وإذا ببعض سراة الليل، وهم عرب أيضاً، يجمعهم المكان، ويناديهم الخط.. محمود التونسي، من هو محمود التونسي؟ وتم تعارف الغرباء هنالك، ألم يقل شاعرنا محمود درويش: ظل الغريب على الغريب عباءة؟.. واتفقوا أن يلتقوا ثانية عند «بناية محمود التونسي»، هكذا بعبثية بريئة لم تتسع ليعرف أحدهم إسم الآخر، ولا لأي تفصيل آخر، وجعل القوم يلتقون بين فترة وفترة، إلى أن جاء يوم.. كنت ترفع صوتك بحماسة عند هذه الفقرة تحديداً.. جئت فيه إلى ما يفترض أنه «بناية محمود التونسي» لكن أصحاب البنايات هنالك دهنوا الجدران، وانمحى الإسم، فما عدت تميز البناية المقصودة، وهكذا تفرق شملك مع أصحاب المصادفة الليلية من العرب، ووجدت نفسك، وأحسب أن هذه اللحظة روائية أكثر منها واقعية.. تصرخ بملء صوتك: أين أنت يا محمود التونسي؟

أي رمز، أي صدى، أي لوعة تحمل هذا النداء: أين أنت يا.. أما أنا، يا أبا سلام، فلن أصرخ: أين أنت يا إميل حبيبنا، لأنه لا يوجد دهان في العالم يستطيع أن يمحو إسمك، فقد هوجمت وأوذيت، بحق حيناً، وبغير حق أحياناً كثيرة، فلم تنسحب من الميدان، وفي مرحلة ما، تألب عليك نويقد، وصحفي، ومهرج، فلم تهن، ولم يشغلك شعار «جهل، جهلهل واحدة ذات رسالة خالدة»، حسب تعبيرك، بل قاتلت وناجزت، وظل لك أن محبيك ومريديك أكثر بما لا يقاس من خصومك، وبقلبك الحليب، كنت تتول ممن له معزة عندك حتى لو خاصمك: ولكنه إبن على أي حال..

يا أبا سلام..

كنت تراهن على محمود التونسي بطلاً لروايتك «سرايا»، فإذا به موجة تحمل إسم أحمد المصري في عباب صاخب متدفق من الذكريات والرؤى.. وكنت تحدثني عن شعر سرايا الذي تأمل أن يطول حتى تتدلى ضفائرها من أعلى القصر، فيتمكن العاشق من أن يتحزّم بها ويصعد، وقلت لك: ماذا لو انقطعت ضفيرة سرايا ووقع العاشق؟ فأجبتني بصوتك الظافرة: «فال الله ولا فالك.. العاشق سوف يصل.. لا بد أن يصل»..

وكانت أول كلمة قلتها لي عندما التقينا على أرض الوطن: «شفت يا عكروت.. ضفيرة سرايا ما انتطعتش، وهياه العاشق يقترب من بلكونتها..» ولكن هل وصل العاشق؟ يا أبا سلام.. مع ذلك لا بد لي من مناداة الحبيبة، وكما علمتني ورويت لي: سرايا يا بنت الغول دلّي لي شعرك لأطول.. فعلى ضفيرتها أن تنمو وتمتلئ بالشمس، وعلينا أن نتمسك بها.

..«أيها الباقي في حيفا». لقد خفت أن تعيش وأن يموت الجيل، فإذا بالجيل يعيش لأنك تعيش. لعل شوبنهاور كان يقصدك عندما قال: «كل شيء يموت في الموت الأذاتي.. تختفي الأشياء ولكني أظل حياً لأن وجودي الحقيقي لا يطوله الموت».

نعم، إن حبيبنا لا يطوله الموت، إنه كالكرمل ووادي النسناس يمد يديه لنا، فمرحباً يا أبا سلام..

(*) الكاتب شاعر فلسطيني إبن حيفا، ويقيم الآن في غزة.

صلاح فضل

على حد السيف

مع أن رحيل إميل حبيبي المفاجيء بالنسبة لنا كان صدمة لم تسبقها مقدمات من أخبار مرضه، إلا أن حياته وإبداعاته تمثل بالنسبة للقارئ العربي إشكالية حقيقية. فهو من أوائل الكتاب الفلسطينيين الذين عبّروا عن موقفهم الوجودي من الحياة ومأساة إنشطارهم في الداخل وتهود جزء من ضميرهم إجبارياً بحكم المعايشة، عن طريق القص والرواية، وليس عن طريق الشعر الغالب في الأدب الفلسطيني. وخطورة الكتابة السردية أنها تقيم ضفائر متشابكة من أصوات الأنا والآخر، وتسمح باتساع درجة الوعي ليشمل ويحتضن المنظور المغاير. وربما كانت تجربة إميل حبيبي المحتدمة سياسياً في الحزب الشيوعي وعضويته المبكرة بالبرلمان الإسرائيلي، قد جعلته يقف على حد السيف بين المنظور العربي للقضايا المصيرية والمنظور الإسرائيلي. إنه يرى الوجهين في الآن ذاته وينشطر بينهما.

ولم يكن من قبيل المصادفة أن يكون عنوان روايته الإنفجارية التي ضمنت له سماعاً عريضاً في المجتمع العربي، يعكس بطريقة نموذجية هذا الإنشطار، فبطله «المتشائل» يرى الحلم والفاجعة، مبررات الأمل وأسباب الإحباط في لحظة واحدة، فيما يمكن أن نطلق عليه نقدياً البؤرة المزدوجة للوعي الشقي. وظلت هذه السمة هي الغالبة على كل كتاباته الإبداعية حتى «سرايا بنت الغول» التي قدم فيها مرثية شجية للمكان الفلسطيني وهو يتهود بالقدر المحتوم، دون أن يملك لذلك رداً، ولعل موقفه المرتبط بالجائزة الأدبية المرفوضة من كل مواطنيه، والتي قبلها تحدياً لهم، لكي يثبت أن اعتراف المؤسسة الإسرائيلية بنموذج إبداعي للأدب العربي يتضمن إعترافاً مسبقاً بدولة

فلسطين، وكل ما أعقب ذلك من إشكاليات حاول أن يفضها بالتبرع بقيمة الجائزة لأبناء الشهداء.

وآخر تلك المواقف التي فصلتنا وجدانياً عنه، تمثل في دفاعه الحميم عن ضرورة التطبيع الثقافي مع إسرائيل، ومحاولته المريرة لإقناع بعض المثقفين المصريين بذلك، وأذكر أن آخر مرة رأيته فيها دار بيننا حوار طويل حول هذه القضية، تجلّى فيها بشكل واضح أن ما تشرّبه إميل حبيبي من المعايشة الموصولة بالأفكار التي تربينا على مناهضتها وتطهير ضمائرنا من الإعتراف بها كان أشد من أن يقاوم، وأن مأساته الحقيقية كانت تكمن في رؤيته المزدوجة لوجهي الصورة في آن ذاته، مما جعله فريداً في موقفه وموقعه ورؤيته، واحتفظ له طيلة عمره بهذه الصبغة الإشكالية التي قيّدت عروبته وخطت مسافة واضحة بينه وبين قرائه، لا يستطيعون تجاوزها مهما تملكهم الإعجاب بفنه والتعاطف مع مأساته.

(٭) الكاتب ناقد مصري.

رضوى عاشور

«المتشائل» ـ منعطف في الرواية العربية

المؤكد أن إميل حبيبي قيمة كبيرة في حياتنا الثقافية. كان واحداً من أهم الروائيين العرب، في كتاباته الإبداعية والصحافية خصوصية كبيرة، ولعل نصاً واحداً كـ «المتشائل» يعتبر إسهاماً كبيراً ومنعطفاً في الرواية العربية. وهو من النصوص التي ستبقى في تراثنا الأدبي، بما تمتع به إميل حبيبي من سخرية نادرة، يلمسها كل من تعامل معه، أو قرأ نصوصه. ومن المحزن والمؤسي أن السنوات الأخيرة من عمر هذا الكاتب العظيم قد شابها الإرتباك والتعثر. وربما أن شعورنا بالضيق والاستفزاز من تصريحاته ومواقفه، يرجع تحديداً إلى شعورنا بقيمته ككاتب كبير ورائد في مجال الصمود العربي داخل دولة الإحتلال الإسرائيلي. والآن بعد أن ذهب إميل حبيبي سوف تثيرنا نصوصه، وهي التي ستبقى في نهاية المطاف.

(*) الكاتبة روائية وناقدة مصرية.

محمد البساطي

أحد كبار فرسان الرواية العربية

إميل حبيبي من الروائيين الذين أعتز بهم كثيراً، فقد قرأت له ثلاث روايات أراها في قمة الجمال الأدبي، وهي «سداسية الأيام الستة»، «المتشائل» و«سرايا بنت الغول». إنني أسف وأبكي لرحيله. فقد كانت «السداسية» يوم صدورها مفاجأة لنا ككتاب في مصر، فقرأناها بانبهار، وهو ما تكرر مع «المتشائل». أتذكر الآن يوم قرأنا «السداسية» جماعة من الأصدقاء، وكانت عقب النكسة مباشرة، في ظل إنهيار المشروع، واستطاع أن يلمس الجرح في هذه الرواية بطريقة مؤلمة بلا زعيق، إذ غاص في الجرح، وهو ما تكرر في «المتشائل».

أما مواقفه السياسية التي تتناولها الصحف، فأنا لا أفهم منها شيئاً وأنا لم أستطع أن أحكم على هذا الموضوع، وفي نفس الوقت أرفض اعتباره خائناً والهجوم عليه، والحقيقة أنني ركنت مواقفه السياسية على جنب نظراً للتشوش الذي تعيشه الأمة العربية.

حين كان يأتي إلى القاهرة في أثناء معرض الكتاب كنت حريصاً على الإلتقاء به، سيترك إميل حبيبي فراغاً كبيراً بيننا بعد رحيله، وخسارتنا بفقده فادحة، فقد غاب أحد كبار فرسان الرواية العربية.

(*) الكاتب قصصي وروائي مصري.

مريد البرغوثي

إنه منّا ولنا

إميل حبيبي عبقري السخرية في حياته العادية وفي أدبه المكتوب. اكتشف مبكراً هذه الثنائية العجيبة في واقعنا: ثنائية المأساة والسخرية، النوح والضحك، التفاؤل والتشاؤم. سيبقى عمله المتشائل طويلاً، ولا أعرف رواية تجاوزت دائرة المثقفين والمهتمين بالأدب إلى دائرة الناس العاديين وهزّت وجدان الفلسطينيين جميعاً إلا «المتشائل» و«رجال في الشمس» لغسان كنفاني.

إميل السياسي أصاب وأخطأ. ناشدته في رسالة حميمة أن يعتذر عن قبول الجائزة الإسرائيلية، لكنني وقفت بحدة ضد الأصوات التي مسّت إبداعه ومكانته الأدبية.

في لقائي الأخير به في منزلي بالقاهرة قبل عامين، قال وهو يسرد بعض ذكرياته: ولكن حياتنا لم تذهب سدى يا مريد.. وسكت قليلاً ثم أضاف: بل راحت سدى.. وضحكنا للدعابة كما يحدث دائماً.

اليوم أقول لإميل: حياتك يا صاحب «المتشائل» لم تذهب سدى. إميل حبيبي باقٍ في حينا وأدبه باقٍ في شعبنا.. إنه منّا ولنا.

(*) الكاتب شاعر فلسطيني يقيم في القاهرة.

أحمد عمر شاهين

تواصل مع أسلوب السرد العربي

أذكر حين صدرت رواية «المتشائل» سنة 1974، وكانت أصدق تعبير عن مشاعر الفلسطيني الحائرة بين مقاومته للإحتلال أو ممالأته له، بحثاً عن هوية ضائعة، وكيف أن «سعيد أبو النحس» بتصرفاته المستكينة جلس على خازوق النهائية، أذكر أننا قلنا - مجموعة من الأدباء - ليت طه حسين كان حياً ليقرأ هذه الرواية، فقد كانت أمنية العميد أن يقرأ رواية تتواصل في أسلوبها مع أسلوب السرد العربي فيما وصل إليه في القرن الثالث الهجري.

وكانت هذه الرواية بأسلوبها وسخريتها وموضوعها المعاصر خير تمثيل لذلك، كانت رؤى أعمال إميل حبيبي الأدبية تختلف عن مواقفه السياسية، وأنا أعجب في الحقيقة من هذا الإنفصال بين رؤى الإبداع والمواقف الفعلية للمبدع.

آخر لقاء لنا كان عام 1994، وقد دعانا رحمه الله - أنا والمخرج الفلسطيني غالب شعث - إلى العشاء، بعد يوم حافل في معرض القاهرة للكتاب، الذي هوجم فيه إميل يومها هجوماً شرساً على موقفه من التطبيع الثقافي مع إسرائيل، كنا نحترم الرجل لكن لا نوافقه آراءه، ولذا لم نتطرق للموضوع، لكنه قال بنبرة أسى ساخرة: جمال الغيطاني يقول اليوم في المعرض إن الإسرائيليين شذاذ آفاق فكيف تكون لهم ثقافة؟ ثم ضحك بافتعال ونظر إلينا بجدية قائلاً: «هؤلاء زبدة العالم لو تعلمون». وكررها مرتين.

لم أعلق ولم أقابله بعدها أو أسعى لمقابلته، وقلت للصديق غالب شعث: يبدو أن الرجل قد أصبح في الجانب الآخر تماماً.

لكن تظل أعماله الأدبية التي عبرت بصدق عن مشاعر الفلسطينيين في الأرض المحتلة، وربما تتضح يوماً الأسباب الحقيقية لمواقفه السياسية المختلفة عن رؤاه الأدبية فيزول العجب.

(*) الكاتب روائي ومترجم فلسطيني يقيم في القاهرة.

سعيد الكفراوي

الصدق وإطلاق اللاوعي

ينبغي القول أن إميل حبيبي قد أضاف للرواية العربية الكثير، فهو أحد الذين استحدثوا شكلاً لعمله الروائي عبر لغة تراثية، عبّر من خلالها عن ذاته وعن وعيه، ومن ثم طرح أسئلته عن حاضر شعبه ومستقبله. لقد انشغل حبيبي فيما كتبه بالصدق وإطلاق اللاوعي للكشف عن مأساة الفلسطينيين عبر آليات:

1 ـ منهج ماركسي منذ البداية الأولى.

2 ـ حرية إختيار شكل الكتابة.

3 ـ التعبير عن قضية أمضى عمره يدافع عنها.

4 ـ توظيف الكتابة لخدمة الفعل الإجتماعي عبر الشكل التراثي العربي.

5 ـ التعبير الساخر بلغة ساخرة عن النفي اليومي الذي يتم بمعرفة الآخر ويشكل بناءً تاريخياً قاهراً واجهه حبيبي بالضحك حيث قال عنه يوماً: إن الضحك في زمن الإحتلال يتسم بالإلتباس ويبدأ بالملهاة وينتهي بالمأساة.

يغادر حبيبي حياتنا بعد أن شغل الناس وقتاً طويلاً، وأضنانا بمواقفه المتناقضة التي كانت على نحو من الأنحاء تثير دهشتنا منذ أن استقال من الحزب الشيوعي الذي كان ينتمي إليه، ويعيش بأيديولوجية هذا الحزب، إلى قبوله الجائزة الإسرائيلية عن مجمل أعماله والتي أهداها بدوره إلى أطفال الحجارة.

يرحل حبيبي الكاتب الذي أحببنا أعماله: «المتشائل»، و«السداسية»، و«سرايا بنت الغول»، والذي كنا نلتقي به عاماً بعد عام في معرض القاهرة للكتاب، فنتعرف من خلاله على الأشياء البسيطة والمدهشة. رحل ذلك الرجل الذي قال عنه يوماً فيصل دراج: روايته متميزة لا تصف الوضع الفلسطيني فحسب بل تصف كل شرط يعيش فيه الإنسان مضطهداً.

(*) الكاتب قصصي مصري.

عبد المنعم رمضان (*)

يكفينا منه «المتشائل»

الذي يقف على الرصيف الآخر وينظر إلى إميل حبيبي يراه شخصاً مربكاً ومرتبكاً، فهو استطاع أن يزرع بعض الخلاف بين أصدقائه وبينه- أن يزرع بعض الخلاف بين بعض أصدقائه وبيني- أن يزرع بعض الخلاف بيني وبين نفسي.

ولكن الذي يتأمل أكثر يكتشف أن إميل حبيبي كان في السياسة عملياً جداً، يتحرك ورأسه عارية لا يحب أن يضع مظلة من الأحلام لأنه ظن أن الأحلام غير ضرورية للسياسي، ظن أيضاً أنها وراء بعض الخراب، وهذا هو خطأ حبيبي الكبير، خطأ حسابات القوة مع الإستغناء عن حسابات التاريخ.

إميل الروائي بهرني بـ «المتشائل» إلا أنني كنت أتصور دائماً أن إميل يكتب أدبه لنقرأه بصوت مسموع، إنه أيضاً أدب أذن. إنه غالباً أدب أذن. رغم إعجابي بـ «المتشائل» كنت أتصور أنه أدب لا يدل على زمنه، إلا إذا اعتبرنا الحوادث الجارية هي دالة الزمن في الأدب. أما المكان عنده فراسخ رسوخاً لغوياً، وهو في هذا يشبه محمد مستجاب، ولا يمكن أن يشبه إبراهيم أصلان. فامتياز أصلان يتجلّى في زاوية النظر، وفي إدراكه العميق لمفهوم الزمن. لا يمكن أن تتصور أصلان كاتباً من الثلاثينات أو الأربعينات أو الخمسينات. هو يسكن زمنه تماماً. أما حبيبي فهو هناك إذا شئت.

ولأنني أظن أن الأدب وثيقة جمالية للزمان والمكان، أظن أن هذه نقيصة حبيبي الأدبية. ومع ذلك أحببت «المتشائل» وكنا قد أطلقنا على أحد أصدقائنا إسمه سعيد لقب «أبو النحس المتشائل».

وعندما قابلت حبيبي في أتيليه القاهرة قبل حصوله على الجائزة المُرة سألته عن المازني ويحيى حقي ككاتبين ساخرين أجابني هازئاً: وهل كانا كاتبين ساخرين؟

أرجو أن ندقق مع إميل حبيبي مواقفه ويكفينا منه «المتشائل». ويكفينا أيضاً أنه مات ورأسه العارية من قوة الحلم والمكسوة بشعره الكثيف والعملي جداً، كانت محشوة بأصوات الإنفجارات وأنين القتلى في الجنوب اللبناني.

(*) الكاتب شاعر مصري.

توفيق أبو بكر

هكذا عرفت إميل حبيبي

صيف عام 1978 كان لقائي الأول مع إميل حبيبي في مدينة «براغ» عاصمة الشيوعيين في ذلك الزمان. كان ممثلاً لحزبه في مجلة «السلم والإشتراكية» التي كانت منبر التفاعل بين الأحزاب الشيوعية في العالم، وكنت هنالك أقضي إجازة في فندق الإنتركونتيننتال الرابض وسط العاصمة الفاخرة، مدينة الجسور.. كانت منظمة التحرير تحظى بكل الإمتيازات والإستثناءات في ذلك البلد ولهذا تمّ الحجز لي بالعملة المحلية، وحين حسبت التكاليف كانت خمسة دنانير كويتية وهو مبلغ زهيد. كنت ألتقي مع «أبو سلام» في القهوة الفرنسية أو في كافيتيريا الفندق نتبادل شؤون «اليسار» و«الثورة الفلسطينية» وكان يتحلق معنا يساريون عديدون ومنهم عوني أبو غوش ـ ممثل المنظمة في إتحاد الطلاب العالمي، ونعيم الأشهب ـ الزعيم الشيوعي البارز ويساريون يتكاثرون كل يوم، يحجون إلى عاصمة اليسار ويتواجهون كل ليلة في مطعم شعبي فسيح كان نابليون قد شرب فيه «البيرة السوداء». كنت أبحث عنه في كل مكان لأستفيد من ثقافته «اليسارية» وإطلاعه الواسع، ونكاته المتواصلة التي تحضره على الفور وتنساب بعفوية لا حدود لها.

**

ومرّت السنون لأتابع خلالها انتقال الرجل من السياسة إلى الأدب حيث زالت الكوابح وحدث الإنطلاق والإبداع بعد سن الخمسين. الإلتزام بالحزب الحديدي والمركزية الدمقراطية قيّد على الإبداع وعلى حرية التفكير دون خطوط حمراء وعلى هز البديهيات ومساءلتها بعنف، وهنالك أحزاب كبرى في هذا العالم: ليبرالية ويسارية (ومنها الحزب الشيوعي الفرنسي) تفضّل أن يبقى المبدعون أصدقاء للحزب خارج دائرة الإلتزام الصارم. التقيت الرجل مرة أخرى في كانون الثاني 1990 في القاهرة في مهرجان ثقافي أقامته منظمة التحرير لتكريم المبدعين الفلسطينيين، ومن بينهم إميل

وتوفيق زيّاد وحنا أبو حنا وآخرون. كان الرجل قد تغيّر تماماً واختفت من حديثه كل المصطلحات السابقة، وفرحت بذلك لأنني كنت قد تغيّرت في كثير من الأفكار واستوعبت المتغيرات، والناس يغيّرون ويتغيّرون فالثابت الوحيد في هذا العالم هو التغيّر. كانت مصافحة الرئيس عرفات جريمة يُعاقب عليها القانون الإسرائيلي آنذاك وهددوا بمحاكمة حبيبي ورفاقه ولكنه صعد المنصة وصافح عرفات وحيّى علم فلسطين، وأبرز إصبعه الوسطى رسالة لمن يريدون محاكمته عند العودة.

أجريت حواراً موسعاً معه ومع رفاقه حول صمود العرب في وطنهم بعد النكبة الأولى وحول الحكم العسكري والعمل في الكنيست وغير ذلك من أمور. أردت بذلك تقديمه وتقديم توفيق زيّاد وغيرهم للقراء العرب الذين لا يعرفون عنهم إلاّ القليل والذين لا يستوعبون بسهولة كيف يدخل هؤلاء الرجال الكنيست ويعملون في إطاره. قال إميل في ذلك الحوار الذي نشرته بعد ذلك في عدد من الصحف العربية أننا أيقنّا بعد هزيمة 1948 أننا أمام حالة طويلة الأمد وليست عابرة وتعاملنا على هذا الأساس. وفتح إميل حبيبي بعد ذلك معاركه الشهيرة ضد المزايدين والمتطرفين في وطنه وخارج الوطن واختمر اعتداله وواقعيته السياسية وأجريت معه آخر الحوارات التي نُشرت في مطالع هذا العام ضمن ملف «التطبيع الثقافي» الذي شارك فيه العشرات من مثقفي هذه الأمة في المشرق والمغرب ومن مختلف التوجهات والمدارس السياسية والفكرية ومختلف الأجيال والبلدان. تمنّع الرجل عن المشاركة وهاتفته من عمان وغزة ورام الله إلى الناصرة وحيفا عدة مرات، شعرت أن الملف سيكون ناقصاً دون مشاركته. تلقيت منه رسالة في 1995/7/18 جاء فيها:

أخي الحبيب

أعذرني على تأخري بالرد على رسالتك الجميلة. فقد جاءني اقتراحك في وقت إضطررت فيه إلى الإنشغال بفحوص طبية بسبب أوجاع جسمية ناجمة عن كبر السن. فقط لا غير. وفي الوقت نفسه عافت نفسي إلى حد القرف، مجرد الحديث عن أية علاقات ثقافية بين أهل الفكر والأدب العربي والإسرائيليين الذين ـ كما يبدو ـ لا يستحقونها، لا هؤلاء ولا أولئك. من المهم أن تتأكد أن قضية «التطبيع الثقافي» غير معروضة على بساط البحث ولا تهم أي واحد على الإطلاق كما يبدو لي.

أما الحرب الدونكيشوتية المعلنة في أوساط المثقفين العرب ضد التطبيع الثقافي فليست إلاّ تسليات يلعبون بها لإخفاء خيباتهم. فما حاجتنا، أنت وأنا، إلى مسايرتهم في تساليهم. الدنيا سائرة إلى الأمام. فيهم وبلاهم.

○○

لم تكن هذه الرسالة مقنعة لي للتوقف عن مطالبته بتدوين شهادته حول «التطبيع الثقافي» لأنها أهم الشهادات، فأهل مكة أدرى بشعابها. جمعت الكثير مما كتبه «أبو سلام» حول هذه

القضية وأعدت صياغة أفكاره الأساسية والتهم الفاكس الأوراق لتصل إليه في عرينه في حيفا. لم يجد بداً من التنقيح والإضافة والحذف ثم أعادها لي للنشر وذلك ما كان.

في شهادته تلك قال حبيبي:

«لا تطبيع في عرفنا وفي أخلاقنا، إلاّ ذلك القائم على إلغاء الغبن التاريخي الذي أنزل بشعبنا العربي الفلسطيني في وطنه ولا حوار حضاري إنساني إلاّ ذلك القائم على تحريم التخوين والتكفير وباقي أشكال العنف الكلامي».

وفي رده على بعض الأصوات الثقافية المسترخية في العواصم البعيدة والمعترضة على علاقات أهل الفكر في فلسطين مع زملائهم الدمقراطيين الإسرائيليين، قال حبيبي:

«الذين يتلقون ضربات السياط ليسوا مثل الذين يعدّونها. لسنا أغبياء حتى نفرّط بأي صوت يرتفع في التضامن مع قضيتنا العادلة، وعلى رأس هذا الصوت أهل الثقافة من أعداء الإحتلال وأنصار إقامة دولة مستقلة لشعب فلسطين فوق ترابه الوطني من الإسرائيليين. دعونا وشأننا وأنتذونا من هذا الحب القاتل. فليست فلسطين، ولله الحمد، غرناطة، وليس منا واحد يبكي بكاء أبي عبد الله، آخر ملوك غرناطة، حتى تؤنبه والدته مائتة: «إبك كالنساء على ملك مضاع لم تحافظ عليه مثل الرجال»».

غير أنه يخاطب أولئك المفكرين الإسرائيليين بقوة ويقول لهم:

«لقد شربنا نحن المفكرين الفلسطينيين كأسنا المرّة أمام شعبنا، لم نتهرب منها بل شربناها حتى الثمالة، فلا يصح أن يستمر أهل الفكر الإسرائيليون في التهرب من شرب كأسهم أمام شعبهم، وهي مثل العسل بالمقارنة مع الكأس المرّة التي شربناها».

ويضع إميل في شهادته سابقة الذكر قضية «التطبيع الثقافي» مع إسرائيل في إطارها الموضوعي ويخاطب أهل الثقافة العرب بقوله:

«لا ندعوكم إلى أي تطبيع مع العدو الصهيوني، بل إلى التطبيع معنا وإلى نجدتنا والوقوف معنا، فلا أنظمة الحكم المطلق ولا النظام الصهيوني معنيان بأي تطبيع ثقافي فيما بيننا، فهم معنيون بإبقاء العلاقات والإتصالات فيما بينهم، وقفا عليهم، وعلى التوقيت الأمريكي».

رحم الله أبا سلام.

(*) الكاتب فلسطيني يقيم موقتاً في الأردن.

يورام كانيوك

حرٌ وأسير

إميل حبيبي، كاتب داهٍ وذكي، مقاتل تراجيدي، مؤمن ومشكّك

يوم توفي إميل حبيبي، كان الطقس حاراً، كالعادة في هذا الموسم. وفي اليوم التالي حين ووري التراب وخلافاً لكل التوقعات، كان الطقس بارداً وممطراً وتساقط رذاذ من المطر. وبعد إنتهاء مراسيم الدفن صار الطقس ربيعياً، بشكل ليس منتصباً يمكن أن نتهم ماذا أراد الله أن يقول عن موت إميل حبيبي.

في جنازته شوهد الكثيرون من محبيه ولكن كان هناك كثيرون ممن عذبوه في السنوات الأخيرة وتركوه وحيداً على الطريق التي أخلص لها، طريق المصالحة القائمة على حقيقة أن الحياة ليست عادلة وأن السياسة لا تقوم على العدل وأن على هذه الأرض الواحدة سوف تقام دولتان بلا حواجز ويتم إلتقاء الشعبين وتكون القدس الموحّدة عاصمة للدولتين.

كما في حياته، كذلك في موته، كان إميل حبيبي حراً، رومانسياً، جريئاً وأسيراً أيضاً. كان في الوقت ذاته حاملاً لجائزة إسرائيل وجائزة القدس. دفع مقابلهما ثمناً وتمسّك بالإثنتين. كان يتمتع بموهبة نادرة بعدم كتابة القصص بل بتركها تسرد نفسها بنفسها بحيث تترك الكاتب في الخلف. لم يكن أذكى من قصصه، بل أشد حذراً؛ وقد دأب على منح متشائله الفرصة للتعبير عن نفسه كجبان وبطل في آن واحد.

كان إميل شيوعياً، لأن هذه كانت الطريق الوحيدة لأن يكون إسرائيلياً وعربياً فخوراً في ذات الوقت. اعترف الإتحاد السوفييتي بإسرائيل والعالم العربي لم يعترف. وما كان يجيش في صدره نفثه لسمك البحر. بعد أن شاهدت بودابست وبرلين الشرقية، المدينتين البائستين، سألته:

كيف كنت تقول أنهما رائعتان، فابتسم وكانت إبتسامته طفولية وعبثية وسلاجة وفي نهاية النقاش كان يتظاهر بالغباء لينتصر عليك بذكائه الماكر.

إضافة إلى الروعة في قصصه، بجمالها الشرقي، فإنها تمزج بين التقاليد الأدبية العربية الفنية وبين الأدب الإنجليزي الواقعي الذي أحبه. هذا الشيوعي كتب القليل من القصص الواقعية الإيجابية وقد ترك لجدانوف أن يبقى في الكنيست وليس في أدبه. في قصصه القريبة من الأساطير يكمن ألم غير أسطوري عن مصير شعبه ومآسيه وقد غلفه بالسخرية بدل السوط الجارح. وبدلاً من أن يكون نبياً كان الإنسان السالح الذي يصرخ «الملك عار»، والأسلوب الذي اتبعه هو الحديث عن الإنسان من خلال الفرد. قصصه ليست ألغازاً، وسر العلاقات بين أبطالها نسج بذكاء وفطنة.

أدرك إميل حبيبي عزلة الغريب الأبدي- ولد ثاقب البصيرة، بين كونه مسيحياً إسرائيلياً وبين كونه عربياً إسرائيلياً، مثل البابوشكا الروسية، دمية داخل دمية داخل دمية.

عام 1947 قاتل من أجل قبول قرار التقسيم واضطر إلى التخفي لينجو بحياته. وفي سنواته الأخيرة لم تكن حياته محفوفة بالحب، كما يمكن أن تتصورها في أثناء جنازته. عندما قرر الكشف عن الحقيقة السياسية التي أدركها وكتمها في قلبه طرد من مكان عمله كرئيس تحرير «الاتحاد».

إميل لم يكن معتدلاً، كان متطرفاً في فهمه لأساوية الحقيقة السياسية، العادلة ولغير العادلة، الأمر يتعلق بالناظر إلى هذه الحقيقة، إنها حقيقة فهم التنازل كضرورة. كعربي عرف أنه يوجد يهود هنا، وكإنسان، عرف أن على اليهود أن يعترفوا به وبحقه. جلس في غرفة عمله في «شارع الجبل»، كما كان يسمى في شبابه وأصبح إسمه اليوم «جادة الصهيونية» وماذا فعل؟ هل بكى؟ كلا! لقد ضحك.

توفي إميل يوم الثاني من أيار 1996، في الثاني من أيار 1921 قتل برينر، الكاتب الذي يشبهه بموقفه الأخلاقي الصلب. مع موت برينر بدأت حرب الخمس وسبعين سنة، التي كرّس إميل حياته لوضع نهاية لها.

سرتُ مع إميل في طريق الحل القائم على عدم الفصل بين الشعبين على الأرض الواحدة، وقد تم هذا الفصل في المدة الأخيرة بواسطة فرض إغلاق بعد إغلاق. بعد العملية الأخيرة في تل أبيب نشر إميل مقالاً دعا فيه إخوته العرب للتعبير عن إستنكارهم. قال لي إنه يائس وإنه بقي لوحده. أظن أنه أيضاً انتظر من زملائه اليهود أن يبدوا شجاعة إزاء ترحيل مئات ألوف اللبنانيين وتفجير قراهم بلا رحمة في عملية «عناقيد الغضب».

بالرغم من رغبته الشديدة، فقد فشل في تنظيم لقاء علني بين أعضاء لجنة المبدعين الإسرائيليين والفلسطينيين (التي أقمناها في مطلع الثمانينات) وبين مبدعين فلسطينيين من الشتات.

محمود درويش، أهم الشعراء الفلسطينيين (عندما لا يكون سياسياً في شعره، فإنه شاعر رائع) صديق إميل وتلميذه، كان في ذلك الوقت مسؤولاً عن وزارة الثقافة في م.ت.ف. إمتنع عن اللقاء المرة تلو المرة. تألم إميل وانتظر، دائماً انتظر، وقد تعلم الصبر بواسطة الصيد. في الأسبوع الماضي عاد درويش إلى البلاد لمقابلة إميل فوجده ميتاً. لو تمّت المصالحة في حياته، لاسودّ شعر رأسه الشايب. حتى بعد أن قيل له أن لقاءً مصرياً - إسرائيلياً هو أمر غير عملي، إلاّ أن إميل ظل يؤمن بأنه سوف يتحقق.

كان إنساناً واقعياً حالماً مؤمناً ومشككاً. خلافاً لكتّاب كثيرين ممن يستمتعون ببريق باهت، وأما عمق كتاباته الأصيلة فيمكن إدراكه فقط بالقراءة وليس بالبحث القارن. ويمكن فهم «المتشائل» أيضاً بمشاهدة التمثيل الفريد لمحمد بكري في إحدى أجمل المسرحيات التي عُرضت في البلاد.

إميل حبيبي الملحد دفن مسيحياً، وخلافاً لرغبة الكثيرين ونزولاً عند رغبته هو دفن في المدينة التي أحب، في حيفا، مدينة مشتركة لليهود وللعرب وفيها عاش حياته الحقيقية.

متفائل وفي الوقت ذاته متشائم، بطل طيّب.

(*) الكاتب روائي إسرائيلي والرئيس المشارك، مع إميل حبيبي، في لجنة «المبدعين الإسرائيليين والفلسطينيين ضد الإحتلال ومن أجل السلام العادل».

(عن العبرية: سلمان ناطور)





- سجن أنصار 3 - 1988/7/3
على رأس وفد «لجنة المدعين الإسرائيليين والفلسطينيين ضد الاحتلال» مطالبة بإطلاق سراح السجناء الفلسطينيين.

- نابلس - 1994/7/30
لقاء «لجنة المدعين الإسرائيليين والفلسطينيين».
في الصورة: داليا رابيكوفيتش، فاميل حبيبي، فندوى طوقان، فيورام كانيوك.
(الصورتان من أرشيف «دار عربسك للنشر» - حيفا)

سلمان مصالحة

بوّابة مندلباوم

هناك، على مرمى صنّارة من شاطىء البحر، في حيفا، خرج إميل حبيبي من نفسه عائداً إلى حيفا التي لم يشأ منها براحاً أبداً، فبقي هو في حيفا مثلما بقيت هي فيه. وهناك أيضاً، عند أقدام الكرمل، طوى صفحةً من كتاب لم يكتبه بالحبر والكلمات، صفحةً من كتاب كانَه في حياته الحافلة بالسّياسة والأدب، مثلما حياة الشعب الذي إنتمى إليه. تلك هي صفحات من ماضينا وحاضرنا، وفيها بلا شك مفاتيح نلج بها إلى باحات مستقبل هذه البلاد، مستقبل ناس البلاد. كثيراً ما كنّا لا نفهم كلمةً هنا وموقفاً هناك، لأن الأمور اختلطت علينا حتى كدنا نتعثّر، حيناً بالنسيان، وفي أحايين كثيرة بما صنعت أيدينا من نكران.

كنت قد اقتربت، في السنوات الأخيرة، من «أبو سلام» في لقاءات عابرة في حيفا أو في لقاءات أدبية سائرة في القدس. أحياناً كان يجنح للقدس في طريقه إلى نظم حبّات العقد واستشراف آفاق جديدة من خلال هذا المرقب الأدبي الجديد الذي شاء أن يسمّيه «مشارف» من قبيل الفأل للمستقبل. أعرف أن الناس عادةً ما يميلون إلى تعداد مناقب الميت بعد غيابه، ولا شك أن كلاماً كثيراً من هذا سيقال، غير أني عهدته يحب الصراحة إلى أبعد الحدود، فهل أبخل عليه بما كان يحب. لم يكن بيننا دائماً توافق في الآراء، إن كان ذلك أدباً أو سياسة، لكن شيئاً واحداً كان دائماً يثير لديه عطفاً على محدّثه، بل أكثر من ذلك. لقد كان إميل حبيبي يعشق الشجاعة الأخلاقية، تلك الشجاعة التي قد ألبّت عليه كثيرين من أدباء العرب أو متأدبيهم. وعلى الرغم من إختلاف الرأي، إلاّ أنه لم يفسد أبداً قضية في الود. وإميل حبيبي مشافهةً أشجع منه كتابة، لأنه ومع أنه كان يريد ترجيح كفة الأدب والأخلاق على أي شيء آخر، كانت جذوره السياسية كقائد شعبي تغلب عليه

أحياناً. كان ينظر إلى الأمور بمنظار القائد المسؤول، ليس عن نفسه فحسب، بل عن هموم شعبه وأمّته. وكان في كل ما يعمل أو يكتب يتوخّى الخير للناس، وهذه ميزة ليست شائعة بين ظهرانينا بكثرة، كما تعلمون. كان الإقتراب من السياسة لديه دأباً وديدناً، لأن الأمور اختلطت عليه، وطالما حاول التوفيق بين الإثنين، فكان يفلح أحياناً ويفشل في أخرى. وكان الأدب والسياسة قطبان يتجاذبانه، وهذان القطبان شكّلا عنده ملجأ ومهرباً فحينما كان السياسي يثير اشمئزازه كان يجد متنفّساً في الأدب، وحينما كان الأدب لا يكفي لدفع الرسالة التي أثقلت عليه كيانه كان ينشط في السياسة. وبين هذا وذاك كان يسير في طريقه دونما أن تبتل ثيابه بقطرات من الزيف الذي صار جزءاً لا يتجزأ من ساحتنا المحلية.

لقد روت لنا العرب في الموروث الأدبي أن المتنبي قتله بيت من الشعر، ومثلما المتنبي جاء «المتشائل» الذي نفخ فيه إميل حبيبي الروح جاعلاً منه بطلاً أسطورياً، ليقوم على خالقه، والمتشائل ليس بطلاً أسطورياً فحسب، إنما هو حالة نفسية لدى هذا الشعب الباقي في وطنه، هو بطل وفي الواقع هو ضد البطل الحقيقي الذي صنعه ونفخ فيه الروح. لكن الأمور تعقّدت حيث لم يعد بالإمكان رؤية خطوط تماسها وتقاطعها. إميل حبيبي لم يكتب الرواية بمعناها التقليدي المتعارف عليه، ولم يكتب القصة كذلك. لقد قصّ وروى قصة واحدة ورواية واحدة هي سيرة حياة هذا الشعب الباقي في وطنه بعد الذي جرى له في العام 48. فمن «السداسية» إلى «المتشائل» إلى «لكع بن لكع» إلى «إخطية» وحتى «سرايا بنت الغول» نرى أن هنالك خيطاً رفيعاً ينظمها جميعاً، ذلك هو خيط هذا العقد - الشعب - الذي انفرطت خرزاته في العام 48، فأخذ إميل حبيبي ما تبقّى من خط وأخذ ينظم من جديد حبات الخرز التي بقيت في ساحة الوطن ليصنع عقداً جديداً. صحيح أنه عقد صغير لكنه عقد جميل يلمح إلى ما كان يمكن أن يكون عليه لولا انفراطه أيدي سبأ. وإميل حبيبي في «مشارف» هذه أراد أن يكون بوابة مندلباوم جديدة تنظم طرفي العقد الفلسطيني، كما أراد أن تكون هذه الـ «مشارف» مرقباً على الساحة العربية والعالمية، وأراد لها أن تكون منفتحة على الآخرين، ومن بين هؤلاء الآخرين هذا الآخر الذي قيّض لنا أن نقتسم معه الوطن. وفي هذا الوطن، قبل أن يتحقق حلمه الذي رسمه لنفسه ولنا، طوى صفحته الأخيرة من كتابه الذي لم يختطّه. وهنا في هذا الوطن، في حيفا التي استحوذت على لبّه. حيفا التي لم تشأ أن يغيب عنها شدّته أخيراً إليها فاحتوته في ترابها إلى الأبد. وهكذا كان الفراق. ولا أجد أصدق من كلمة متمّم بن نويرة الذي رثى شقيقه مالكاً في التّعبير عن هذه الصداقة:

فلمّا تفرّقنا كأنّي ومالكاً لطول اجتماع لم نبت ليلةً معا

(*) الكاتب شاعر فلسطيني من المغار (الجليل) ومقيم في القدس.

جميل عطية إبراهيم

موقفه هو أدبه

سيظل إميل حبيبي قيمة أدبية كبيرة بإنتاجه المتميز الذي واكب فيه الأحداث الدرامية المأساوية لبلده وشعبه، وتجد في صفحات رواياته حياة كاملة للناس في حركة دائبة نضالية لا تعرف اليأس، وأنا أنظر إلى الكتّاب الكبار من زاوية الإبداع الأدبي، وليس في إطار التجمعات الحزبية أو التصريحات الصحفية، أو المواقف السياسية المتقلبة، والتي تأتي وفقاً لمعطيات التجربة العربية، فكبار كتّابنا المتميزين أدبياً، عادة ما يخونهم الرأي السياسي، فهذه ليست مهنتهم في الحياة، ويمارسون السياسة بمنطق الهواية، والعمل السياسي الحقيقي لإميل حبيبي، بعيداً عن تصريحاته، هو إصراره على البقاء في الأرض المحتلة، رافضاً الهجرة أو الإقامة في الخارج، فكان بذلك متحدياً الإستعمار الإستيطاني بجسده.

(*) الكاتب روائي مصري مقيم في فيينا/ النمسا.

علي الراعي

«المتشائل» مذاق لا يتكرر

تبقى على رأس الأعمال الأدبية التي أنتجها الكاتب إميل حبيبي روايته الفذة «المتشائل»، التي مدّ فيها جذور الرواية العربية إلى التراث، ونهل من سخرية الجاحظ ومن الحكايات الشعبية، ومد بصره إلى الرواية الحديثة، وخلق من هذه المقومات فنا روائيا خاصا به، بمعنى أنه لم يكن غيره يستطيع أن يتممه، وأكاد أرى هذه الرواية علماً على قدرة الكاتب على أن يسخر من عيوب الناس ومن عيوبه هو شخصياً، فالبطل مهرّج متعدد الرخص الشاملة، الذي يسمح لنفسه أن يتناول بالنقد المقدسات وعيوب المجتمع والمناضلين الفلسطينيين، إلى جانب مزاياهم، وهذا يبيّن خطر الإلتصاق بالماضي والبحث في ثناياه عن حل لمشكلات الحاضر، ومثل هذا التناول في النقد الإجتماعي، يجعل له مذاقاً لا يتكرر عند روائيين آخرين، إن هذا العمل الروائي سيظلّ باقياً في تاريخ الرواية العربية، إميل حبيبي كاتب ممتاز.

(*) الكاتب ناقد أدبي مصري.

إبراهيم فتحي

أديب عظيم ومبتكر

هو في رأيي أديب مبتكر في شكل الرواية والقصة، يعتمد على أشكال تراثية عميقة جداً من القص العربي النادرة، وألوان الخبر المروي، وأبيات الشعر، ويربط كل هذه الأشكال التراثية بما يسمى التناص.

فهو في رواية «إخطية» يمزج هذه الصيغ التراثية مع صيغ حديثة جداً، ومع استلهام الشكل القصصي عند ڤولتير في روايته الشهيرة «كنديد» التي يحث فيها أسرار التفاؤل. وهو في نفس الوقت دافع في نضاله الماركسي في الأرض المحتلة بفلسطين، التي لم يغادرها بعد حرب 1948، دافع عن الثقافة القومية الدمقراطية، وعن حق الأقلية العربية الأسيرة ضد التمييز العنصري، لكن إتباعه دائماً للخط السوڤييتي، كان في حالة تبعية كاملة للفكر السوڤييتي، وربما كان هذا من طبيعة الحال، إذ كان الإتحاد السوڤييتي مدافعاً عن القضية الفلسطينية، وعندما حدث النقد لهذا الخط حدثت لديه أنواع من الخلل، فرفض فكرة الحزب، واستقال منه، وأعاد النظر في أفكاره، وأصبح أكثر برجماتية، وهو يرى أن الحصول على الفتات، هو بمثابة النظرة الواقعية التي تتطلبها الأمور، ويرفض الكثيرون رأيه في التطبيع، وإن كانوا يحترمون أدبه وتاريخه النضالي، وهو في كل الأحوال أديب عظيم ومبتكر وليس منظراً ومفكراً.

(*) الكاتب ناقد أدبي مصري.

فريد غانم

رسالة مفتوحة إلى إميل حبيبي

هل ترى الذي نرى؟
هل نرى الذي ترى؟

أبا سلام،

بأية وسيلة وبأي عذر، غير الإيمان بالحياة بعد الموت، يمكن أن تصل إليك هذه الرسالة؟

كنت، سامة أو أكثر قليلاً قبل أن يشيع جثمانك إلى مثواه الأخير، سمحت لنفسي بالإنطلاق في ما كنت تسميه «الخيال الشرقي المجنح»، وكدت أراك، من فوق النعش ومن على جمهور المشيعين، تحدجنا بنظرتك المألوفة: نظرة تلتف من فوق زجاج نظارتك فتجتازها؛ نظرة فيها أكثر من سخرية صارمة، وفيها أكثر من إستفهام، طفولي ربما، وفيها أكثر من حسرة على أشياء لم تكتمل. وكأني رأيت فنجان القهوة، وقد أصابته الرعشة، وحيداً أمام القلم الثلج. وكأني رأيت القلم يتيماً وقد رحلت عنه أصابع الكاتب، يبحث عن فارسه الذي ترك حيفا وتركنا مع رزم من الورق الناصع البياض: ورق من القطع المتوسط، متلهفاً للسائل الأسود.

ورأيتك، أو كدت أراك، تربت على أكتاف البعض مسامحاً، بعد أن وجه إليك هذا البعض الرماح السامة. ورأيتك، بوجهك المحفور بالمعارك، تعتذر لمن أساءوا إليك. فمن أين وكيف توفرت فيك كل هذه الطيبة، خصوصاً في عامك الأخير بيننا؟ وكيف فاتنا أنك أدركت، منذ أكثر من نصف عام، أنك مسافر في رحلة الإتجاه الواحد. وكيف نرد، الآن، على هذه الطيبة بأطيب منها، بعدما رحلت عنا، في غفلة منا وفي غفلة منك؟

أكاد أصدق أنك ترى ما نرى وما لا نرى. ولا أريد أن أصدق أنك ترانا ولا نراك. لهذا أكتب إليك هذه الرسالة، مفتوحة على كل الجهات، وموجهة إلى كل العناوين. وحين تصل إليك. ولا بد ستصل إليك

ـ أرجو أن تغتفر لي ركاكتي، وأرجو أن تغتفر لنا قصورنا عن زيارتك، في وقت إحترق فيه المرض أسوارك وضاق فيه الوقت عليك، حتى تلاشى. وكنت تمسك، بذراعين منهوكين، عقارب الساعة، لعل الأرض تتوقف عن دورانها.

أعطنا علامة تدل عليك، ولتكن العلامة فراشة بيضاء، أو لتكن العلامة طير السنونو. أو لتكن ما شئت: نسمة غربية، أو سحابة في شكل شيخ جليل، أو قلماً سائلاً يسطر فكرة، أو مخطوطة خبأتها يد الزمن، أو خطاباً حماسياً، أو ما شئت، ما شئت يا أبا سلام.

وقفت ضد التيارين: تيار الخصوم المدججين بالقوة، فلم يكسروك. وتيار الذين قضيت جل حياتك تدافع عن أخطيتهم، فأخرجوك من طينتهم حين قررت أن تحصن اليقين بالشك. وقد يكونون قد كسروا فيك أكثر من ساق وأكثر من قلب.

لكنك لم تمت، لأنك انتصرت في معركة أن تكون أو لا تكون.

(*) الكاتب يعمل محامياً وسابقاً عمل صحفياً برفقة إميل حبيبي.

بلند الحيدري

معك في برقية ثالثة

إميل حبيبي.. أيها الصديق الكبير

عندما طرق سمعي قبل أيام قريبة جلت نبأ الوعكة الصحية التي ألمّت بك، وحملتك إلى المستشفى، تمنّيت في برقية قصيرة بعثت بها إليك، أن تكون وعكة عارضة تعود بعدها إلينا، وقلت لنفسي: سنلتقي حتماً، وستجمعنا غرفة في فندق في هذه العاصمة العربية أو تلك، وعلى هامش هذا المهرجان أو ذاك.. وسنتحدث طويلاً عن ود ذبل وجفّ ولم يعد يشدّه إلى أخوة أعزاء عليه، كما كان يشده إليهم بالأمس، وهم يحلمون معاً ويكتبون معاً ويغمسون أقلامهم في محن أيامهم القاسية.. وسنعود إلى الحديث عن «المتشائل» هذا المزيج الإنساني الرائع لإميل حبيبي، بين السياسي المتفائل بحكم الضرورة، وبين الأديب المرهف الذي لا يمكن إلا أن يكون متشائماً عندما يتأمل وجهنا في مرآته المتعرّة.. وانتظرت أن أتسلّم ردك أيها الحبيب.. يا حبيبي.. على برقيتي، ولكن كان الصمت هو جوابك الوحيد عليها، ومع ذلك، كذبت نفسي، وذهبت بها إلى ظنة خيّرة، فقد عودونا الكبار على مثل هذا الصمت، فبعثت ببرقية ثانية شكرتك فيها على ما تفضّلت به علي في إفتتاح «مشارف» بقصيدتين لي.. وكان الصمت مرة أخرى هو جوابك الوحيد عليها..

إذن لقد آثرت أن تصمت إلى الأبد أيها العزيز.. ولكن ثق أن ما تركته فينا من كبر أدبك وخلقك ولطفك سيظل يحدثنا دائماً عنك..

من قال: ماتْ

لا.. لم يمت.. ما زالْ

يملأ كل عرق من عروقي بالحياة..
لا.. لم يمت.. قد يوهن العياء بعض وهلة
جفونه
وقد يغطي جرحه المدمى بعض وهلة
عيونه
لكنه يظل في النزف دماً يقيت
ما دام فجر أمة
في جرحه يبيت.

(*) الكاتب شاعر عراقي مقيم في لندن / إنجلترا.



تونس - في «أيام قرطاج السينمائية» - 1994/11
يسلم الجائزة لأحد الفائزين - إلى يساره الكاتب الجزائري حبيب تانغور.
تصوير: سهام داوود.

فيصل قرقطي

باقٍ في حيفا كسنديان..
باقٍ في حيفا كحيفا..

أيها الباقي في حيفا، على تخوم الروح، وفي مدى العين. ذاك الهارب من الرؤيا خلف الجبال البعيدة.

أيها الباقي في حيفا، في أخاديد القلب، ونواح العصافير المهاجرة صوب الغروب دائماً. الغروب الذي لا يشرق، ولا يغرب أبداً.

أيها الباقي في حيفا، كحيفا، كانكسار الروح في المرآة، وانحلال جدائل الشوق في شلالات مياه الحزن..

كيف أرثيك؟

وأنت أكبر من الموت والرثاء، حيث ما زالت تلك الصبية الفلاحة «إخطية» المتمردة تصرخ في وجه الأعاصير، قرب الشجرة، الشجرة المعمّرة فينا كأنساغ بلاغة لم تكتمل في رصيف الوجد.

كيف أرثيك؟!

والزمان يغفو على ساعديك قليلاً، ويصمت أكثر من اتساع الحلم في جدارة الروح، في مشهد الخلود.

وأنت تمشي فيما بين منعطفين لا يلتقيان.. إلا ليعريا يباس الشجر الحزين منذ خمسين عاماً.

وأنت هنا.. هناك.. أراك متوحداً وصامتاً قرب شلال بلاغة «السداسية» التي وصلت إلى القداسة، قبل اكتمال اليوم السابع فيّ وكان الإنبعاث طافحاً بمشيئة الخلود التي تعشعش في قلبك كعصافير ولدت.. وعصافير لم تولد بعد، وعصافير إصطادها قراصنة البحر والبر والغابات.

أيها الباقي في حيفا كسنديان يوزع عذابات التراب وشهيق الأرض، تلك التي لا تليق إلا بأماميل

حبيبي كأحد فرسانها الذين نزلوا بهدوء جارف عن عرش الكلمات.. ليتوحدوا فيها روحاً وجسداً، بعد اكتمال توحّد المشهد في ينابيعها ثراءً معرفياً جرجر أنساغ اللغة، وزرع الحروف في مساكبها الأولى.

عليّ أن أربط حزام الشوق لأستطيع أن أجاري صدى حنين النوارس المنتشرة على شواطىء حيفا.. إنك تعرفها جيداً، بل إنني أراها ترسم مدارات طيرانها وخفق قلوبها في راحتيك.. أيها المتوحّد العابد في أنين الترف العملي، ساعة انكسار الحقيقة.

كيف لأيار أن يحتمل؟! أيار «أقسى الشهور»، أيار يجثو على ركبتيه، والزهر يرتعش، مثل أنين الكمان، مثل احتضار الوجد.. مثل وطن تحت الإحتلال، ومثل قلادة تنفرط على صدر «إخطية».

هل وشوشتك العصافير بما تخبئه السنون العذارى ساعة الإشتباه في المصير الأعمى؟!

هل أنبأتك النجوم بمحنة الوجد في ليالي أيار؟!

علم طافح بمسرات اللغة.

وانشغال العصافير في الطيران قبل أوانها، قبل اكتناز الزغب في أجنحتها.

ومن «مشارف» القرن.. إلى «مشارف» القرن كنت تعلّم مسجد المكان لندخل.. لم ندخل! كأننا خرجنا!!

ولم ندخل أبداً!!

يا إلهي كيف لهذا الوطن أن يحتمل غيابك؟!

كيف لا يخرج الناس إلى الشوارع في مظاهرة إحتجاج ضد «الموت»، الموت الذي لا يصيبنا ألاّ إذا صمتنا.

كأنك حيفا في انسدال ألقها الليلي، وفي انثيال نشيدها في العروق.

كأنك الراحل.. الباقي في حيفا.. حيفا التي دخلت حيّز الوجود في مضاء وحدتك الفقيرة.

كيف أرثيك؟!

وأنت استباق النشيد إلى رفّة الصوت، وارتجاف الأرض بما ومن عليها.. كأنك الطالع، أبداً، في مراثينا.. النازل أبداً في خلودنا القصي.. خلودنا الذي يطأطىء رأسه إنحناءً كي يمرّ إميل حبيبي.

ولا وقت للندب

ولا وقت للعذاب

ولا وقت للإرتحال

ولا وقت للوقت

ميتي يا مراثي الحزن ألواح الكتابة، فما زال في فمه شيء لم يقله، عدة كتب لم يدوّنها بعد، قبلة لم تلمسها شفاه، ورفيف صوت يسير بطيئاً تحت جلد المأساة.

وها هو الكبير ذهب ليرتاح، ويأخذ قسطاً من النوم، يأخذ قسطاً من الصمت، كي يعود ثانية.. لا ليكتمل الصوت، وإنما ليلغي الفواصل بين الروح والجسد، بين الفكرة والوطن، بين النحيب والدمعة، بين الإبتسامة ومهارة السخرية.

كيف أرثيك؟!

وأنت ما زلت تدوي في سماء الوطن، وسماء الروح، كطائرات تتصف، وتقصف جنون لهفة اللصوص للإستحواذ على كل شيء.

لم تقل لي شيئاً.. وقلت كل شيء بارتعاشة يدك وتهدّج صوتك البارع في اقتناص الطفولة.. الطفولة الماثلة في جنباتك، كأنها حروفك المضيئة في خيوط النار، وصوتك ما زال يرنّ في آفاق القلب كحمام من ذهب.

(*) الكاتب فلسطيني عائد من قبرص ويقيم الآن في رام الله.

فخري صالح

إنعطافة كبيرة في تاريخ الرواية العربية

مهما كانت شخصية الروائي الفلسطيني الكبير الراحل إميل حبيبي إشكالية مثيرة للجدل والاختلاف، ومهما تباينت صفحات حياة هذا الروائي العربي الكبير، فإن سيرة حياته تتداخل فيها أحداث عاصفة وانكسارات أدت إلى إنعطافات حادة لا في حياة إميل حبيبي فحسب بل إنها غيّرت مسار التاريخ في المنطقة والعالم، وقد كان إميل شاهداً على هذا التغير إلى حد أن التغير أصابه وأصاب فكره ورؤيته للسياسة والصراع العربي - الإسرائيلي حول فلسطين، كما نسف علاقته بالشيوعية التي انتمى إليها ولم يكن قد بلغ العشرين من العمر، وجعله يعيد النظر في تاريخ انتمائه للفكر الماركسي ماحياً نصف قرن من الممارسة السياسية قضاها مناضلاً داخل دولة إسرائيل ومدافعاً عن حقوق ذلك الجزء من الشعب الفلسطيني الذي بقي على أرضه. ولقد أثار تأكيده على الخصوصية الفلسطينية، ودفاعه عن كونه فلسطينياً إسرائيلياً، غضب الكثيرين من المثقفين العرب والفلسطينيين الذين ناصبوا إميل العداء بسبب تحولاته السياسية الأخيرة بعد إنهيار الإتحاد السوفييتي والمعسكر الإشتراكي في العالم. وإنه لمن الصعب، من وجهة نظري، الدفاع عن مزاج إميل حبيبي السياسي خلال السنوات الخمس أو الست الأخيرة إلا إذا التمسنا للراحل الكبير العذر في الصدمة المزلزلة التي أصابتنا جميعاً بعد انهيار المعسكر الإشتراكي وتحول العالم إلى مزرعة أمريكية يصول فيها العم سام ويجول، وبعد إنكسار العراق في حرب الخليج مما أدى إلى تحول المنطقة، ومن ضمنها الفلسطينيون، إلى عجينة رخوة قابلة للتشكيل والعصر في الأيدي الأمريكية والإسرائيلية، ومن هنا فإن مناخ اليأس والإحباط وافتقاد الطريق كان المسؤول الأول عن

خطاب إميل حبيبي السياسي خلال السنوات القليلة الماضية. ويتوضح هذا المناخ النفسي الذي كان إميل يدور في فلكه من خلال ردود أفعاله العصبية في كتاباته ومساجلاته الشفوية ودفاعه الصاخب عن نفسه وعن فلسطينيته المحاصرة. وأذكر أنه خلال الصيف قبل الماضي في مدينة أصيلة المغربية قد أثار القاعة بمن فيها من مثقفين عرب وطلبة ومثقفين مغاربة بسبب نبرته الحادة وهجومه المستمر على المحاضرين والحضور خلال جلسات النقاش في مهرجان أصيلة. وخلال الجلسات الخاصة في مقاهي أصيلة، وفي رحلة الذهاب والإياب بالحافلة من طنجة إلى أصيلة، كان يستوثق مني فيما إذا كنت قد هاجمته مثل غيري بسبب مواقفه ومقالاته وآرائه السياسية.

لقد كان إميل رجلاً مختلفاً بشأنه خلال السنوات الأخيرة، لكنه ظل رغم ذلك روائياً وكاتباً كبيراً حققت روايته الشهيرة «المتشائل» إنعطافة كبيرة في تاريخ الرواية العربية وأوجدت حلقة وصل بين النثر القصصي العربي القديم والرواية المعاصرة. ومع أننا نختلف حول نثره السياسي وأهميته إلا أن كتاب تاريخ القضية الفلسطينية سيظل ناقصاً صفحات عديدة إذا ما أسقطنا منه ما كتبه إميل حبيبي وما أثاره من نقاش حول رؤيته الخلافية بشأن القضية الفلسطينية. وإذا كان الموت قد طوى إميل، وسيطوينا من بعده، فإن ما يبقى من الإنسان بعد رحيله عن هذه الدنيا الفانية هو إنجازه؛ وإنجاز إميل الكبير كان في الكتابة من خلال رواياته وقصصه بدءاً من «سداسية الأيام الستة» وانتهاء بـ «سرايا بنت الغول».

(*) الكاتب ناقد فلسطيني مقيم في الأردن.

علي الخليلي

إميل حبيبي: من الإختلاف إلى السخرية

كان إميل حبيبي يحسب أنه يخرج من كهف، حين خرج من إطار الحزب الذي حمله على كتفيه، وفي عقله، سنوات طويلة. ولكنه اكتشف، من وراء ذلك الحسبان، أنه كان يخرج من ذلك الكهف القديم ليدخل إلى ذلك الكهف الجديد، وهكذا دواليك، كما قال صراحة في غير ما نشره، وفي ما نشره أيضاً، في الفترة الأخيرة، أن الإنسان / المفكر لا يغادر الكهف أبداً، بقدر ما يواصل رحيله في الواقع، عبر سلسلة متواصلة من الكهوف!

إن المعنى الأكثر عمقاً لهذه الرحلة الإنسانية المعقدة والمكثفة، في فكر إميل حبيبي، هو في معاناة المفكر، حين يكتشف هذا المفكر المعذب فجأة، آلافاً من القيود والأغلال التي تكبل روحه، بواقعية شديدة، وبتلقائية مذهلة، رغم أنفه، ورغم كل كبريائه وإرادته الهائلة في تحقيق حريته.

ولقد استمرت معاناة إميل حبيبي، على مدار عمره كله، فكان ما كان من سخريته التي كنا ندرك على الفور، أنها طريقته الوحيد للتخفيف من ثقل هذه المعاناة.

ومنذ عرفت إميل حبيبي شخصياً، في العام 1977، في مكتبه آنذاك، في صحيفة «الاتحاد» بحيفا، كنت أتابع خيوط هذه السخرية، فأسأله حيناً بعد حين: هل ترتاح حقاً لهذا الجمر اللاسع بين أصابعك؟ فيسكت، ثم يقول أن العقل الذي يرفض التشاؤم، يختار الساخر في الأشياء!

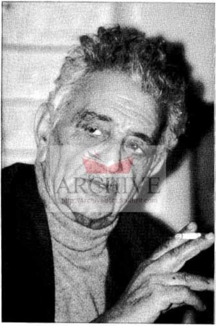
إلى ذلك، كنت أفهم منه، دون أن يدري، تفسيراً جديداً لهذا «المتشائل» الذي أحببناه مبكراً، فالمسافة بين المتفائل والمتشائم، في هذا السياق الذي أراده إميل حبيبي، هي بالضبط، مسافة الساخر منا.

واستمرت محاولاتي في فهم أو «تفسير» إميل حبيبي، كلّما ألتقي به، وعند كل قراءاتي له، وفق تلك المسافة التي تمزج الوطن بالفلسفة، بالأدب، بالنضال، بالتضحيات الكثيرة، بالخصائصية الفلسطينية، بالصراع، بالسلام.

اختلفت معه في قبوله لجائزة إسرائيل الأدبية، ثم فهمته عبر هذا الإختلاف، حين تسلّم جائزة فلسطين الأدبية، وشاركته في لجنة المبدعين الفلسطينية - الإسرائيلية، والتي كانت المشاركة فيها أشبه بـ «التهمة» في مطلع الثمانينات، بالنسبة لي، فكان يختلف معي على هذا «الإتهام»، إلا أنه يتواصل بفهم ما يحيط بنا من حيثيات، ومن أحوال بشأن هذا الإختلاف، وصولاً إلى العمل المشترك، بشجاعة وإصرار.

وقد تعلمت من إميل حبيبي أصول هذه الشجاعة في الفكر، وفي الكتابة، مهما كانت الحال، في هذا الكهف أو ذاك.

(*) الكاتب أديب فلسطيني يقيم في ضاحية البريد (القدس).



رام الله، 1996/4/13

تصوير: ليانة بدر.

محمود أمين العالم

مناضل فلسطيني حقيقي

إنطباعي العام أن إميل حبيبي هو أحد ضحايا العدوان الإسرائيلي - الأمريكي الأخير على لبنان.. هذا العدوان يكاد يقضي على الأمل في قلوب المؤمنين بالسلام مع إسرائيل.

إميل حبيبي كان أحد هؤلاء..

كان متفائلاً بإمكانية تحقيق السلام، لكن عملية إسرائيل كانت من البشاعة بحيث قضت على هذا الأمل.

إميل حبيبي كان يؤمن بالسلام وكلنا نؤمن بالسلام.. لكنه كان يتعجّل الأمور قليلاً لأنه كان يخلط بين رغبته في السلام وشروط تحقيق السلام.

وإميل حبيبي يبقى من أكبر كتّاب الرواية العربية، خاصة في رائعته «المتشائل».. أغنى اللغة العربية.. عميق الصلة بالتراث العربي القديم متابع لكل جديد، وهو أيضاً مناضل فلسطيني حقيقي.. له نضال كبير من أجل عروبة فلسطين.. أديب عربي كبير ومحبّ عظيم للسلام والأدب والحرية.

(*) الكاتب مفكّر وناقد مصري.

حسن البطل

كليم الرواية الفلسطينية

في البدء كانت «الكلمة»، وفي الختام تكون الكلمة؛ والكلمة هنا بمعناها العظيم؛ أي «لوغوس»، ولعلّ منها «الكليم».

وليس فقيدنا إميل حبيبي أكبر من الكلمة، ولكن إزاء جلال الموت يليق الصمت أول ما يليق. فلماذا تراني أقول، وقد نقل إليّ زميل لي قبل 48 ساعة، سلامات هاتفية من «أبي سلام» وهو على سرير موته؛ أو قد دخل سياق الموت، أو حضره الموت؟

هل رأيته دخل سياق الموت، فودّعته في عدد الجمعة من «الأيام» الصادر يوم 96/2/9؟ وهل نعيته في عدد الجمعة يوم 4/26 عندما أشرت إليه في السياق وفي العنوان «نفّعنا الله بعمله» وقلت: يُسأل الإنسان بين أيدي الديّان عن ثلاثة: ماله وكيف أنفقه، عمله وماذا عمل به.. وعلمه وبماذا نفّع الناس فيه؛ وأن العرب إذا حمدت رجلاً كبيراً أو ترحّمت عليه، قالت: «نفّعنا الله بعلمه»؟

ولقد شكرني «أبو سلام» على المقالتين: وجاهياً عن الأولى؛ وهاتفياً عن الثانية. فكبر في نفسي - وهو الكبير - لأن المثقف العربي يرتبك أمام حقّ الموت؛ ولأن العرف الإجتماعي يستهجن حديث موت إنسان قبل حدث موته.

.غير أن أبا سلام، على خوفه الإنساني المشروع أمام سؤال الموت، كان رحب الصدر. فلأحكي عن رحابة صدره ورحمة «أبوّته» المعنوية.

ذات يوم زارنا «أبو سلام» مصطحباً رفيقه منير فُلنر في مكاتب «فلسطين الثورة» بنيقوسيا، وبسبب غياب نائب رئيس التحرير، وجدت نفسي كمدير للتحرير، ملزماً بواجب كلمة الترحيب. فأشرت في سياقها إلى ضرورة تخلي «حداش» عن «منمنة» حملاتها على «الحركة التقدمية». فما كان من أبي سلام إلاّ وتصرف كأنه ربّ البيت، وتولّى المترجم إلى العبرية نقل تقريعه القارس لي على مسامع الرفيق فُلنر. فسكتُّ احتراماً لأبي سلام، أباً معنوياً، وضيفاً عزيزاً، لكنني «انكمشت» في اجتماعه ومساجلاته مع الأدباء والصحفيين مساء ذات اليوم.. فلما انصرفت غير مودع إيّاه، انتهرني بحب كبير، واحتضنني سائلاً مني الصفح على قسوته.. وطالباً من المصورّ تسجيل ذلك

«الإحتضان»!

.ومكذا يجوز أن يخطئ «الأب» إميل ويصيب «الإبن حسن»، بدلالة معطيات الصوت العربي الحالية وخارطته.

وأما آخر عهدي بأبي سلام فكان عصر يوم اجتماع المجلس التشريعي في رام الله، عندما أطللت مصادفة على مكاتب «مشارف»، فإذا به ينتهرني مرحباً: «أين أنت يا ولد..» ثم قام من فوره.. ذاوياً متثاقل الخطو.. ليشهد المجلس.. فتذكرت كيف قام من فورة أيضاً.. بقوة أكبر قليلاً.. ليزور أقرب قلم اقتراع في الإنتخابات التشريعية.. كان يريد أن يرى مطلع الفجر الفلسطيني.

ليس أبو سلام أقرب الناس إليّ ولست بداهة من أعزّهم على قلبه.. ولست صاحب «قلم سيّال» كما ادعى محمد حمزة غنايم، فجرؤت على نعي أبي سلام في حياته.. غير أنني أعترف بأنه واحد من آبائي الفكريّين، مذ قرأت «سداسية الأيام الستة» فتعارفت بها النقّاد بدمشق ولست بناقد.. إلى فكرة روايته عن المهندس يحيى عيّاش التي لم يقو على إنجازها.. ولكنني لم أقو على إنتزاع «الملحمة» من يده في مطعم البرdوني.. لأنني أردت له أن يعيش ليس فجر الإستقلال فحسب، ولكن فجر القرن الأول من الألفية الثالثة، ممازحاً إياه بأن «نوبل» ستكون من نصيبه.. إذا «صمد» حتى طلوع ذلك الفجر.

ما هو «الغروب» إذن.. لأن الإنسان لا يرحل لكن يغرب، فبعد الغروب شروق.. وقد أهدى أبو سلام للرواية الفلسطينية شيئاً أسلوبياً يؤتنس عليه: أسلوباً أصيلاً بلغة أصيلة من واقع أصيل.. وبنفس روائي أصيل.. قبله كانت الرواية الفلسطينية «إبنة أكثر من أب»؛ فصار أباها الشرعي.. فهو كليم الرواية الفلسطينية.

إلى من أنعي «آخر الروّاد»: روّاد الإنبعاث الفلسطيني في الجليل الفلسطيني؟

إلى رفيقه إحسان عبّاس الذي لم يلتقه منذ النكبة؛ وإلى رفيقه محمود درويش، الذي كان ليلة موت إميل حبيبي يتحدّث في مكاتب «الأيام» عن لهفته للقيا أبي سلام.

أهو «الموت الفلسطيني» صنو «العرس الفلسطيني»؟!.. لا يصل الحبيب إلى الحبيب إلاّ شهيداً.. ولا يصل الصديق إلى الصديق إلاّ ميتاً؟

ليس «جهينة» أكبر من «الكلمة» فكلمة الموت تقطع خطبة الحياة.. لكنه أكبر من كلماتي.. هو الأكبر مني، وأنا كبرت به، بقلمه.. بنضاله، فهو واحد من آبائي الفكريين.. ولكنه الأب الفكري والروحي للزميلة سهام داوود وهي أكثرنا «تيتّماً» الآن.

ذوى أبو سلام جسداً.. غاب، وأهدانا ظلّه العالي والطويل.. إلى الأبد.

(*) الكاتب صحفي فلسطيني عائد، وهو محرر صفحات الرأي في جريدة «الأيام».

آدم باروخ

أربع عيون على طبق واحد

«ماذا، ماذا تقول؟» سأل إميل حبيبي وهو يمصمص شفتيه كأنه لا يثق بما سأجيبه. كان يبدو منتشياً بعض الشيء ومرحاً، وكنا في بيت توريت غيرتس وعاموس كينان حيث غصّ بالضيوف اليساريين المتقدمين بالسن. فقد دعاهم كينان لمشاهدة آخر أعماله الفنية النحتية. عاتبني إميل حبيبي على عدم نشر مقال له قبل سنة ونصف: لم أتسلم هذا المقال، ولو كان ذلك لنشرته. فلماذا لا يُنشر مقال لإميل حبيبي؟ وكم من مقال لإميل حبيبي يصل إلى يديك؟ لست بحاجة إلى شجاعة خارقة لنشره. ويستطيع إميل أن يؤكد أو ينفي، لكنه يحظى بإجماع حوله، رغماً عنه.

إقترحت عليه أن يرسل المقال ثانية، فردّ «هذه إجابة مبائية.. مهما كنتم شباباً فتبقون مبائيين أكثر من شيوخ مبي[1]». ضحك الناس من حولنا لسماع هذه الإجابة، ثم قلت له: «يا إميل، لا تضخّم نفسك أكثر من اللزوم» فقد أردت أن أحفظ إحترامه لكن إستفزازه منعني من ذلك. سكت وبدا كأنه يسلّخ نفسه ولكن أرينيلا، محبة السلام، أبعدتني عنه بحجة واهية، وبعد نصف ساعة واصلنا محادثتنا.

تفرّق معظم الضيوف، جلسنا الواحد إزاء الآخر وأمعنا النظر ببعض، وبدا كأن عيوننا صارت من البنانير الزجاجية، زوجين من العيون على طبق مسطّح. أدركت ماذا أرى في عيني إميل حبيبي، لقد رأيت نفسي، أي أنني رأيت نفسي كما رآني إميل، إنه يحدّد نظرتي إلى ذاتي، وأنا أحكم على نفسي حسب الشارة المطبوعة في وعي «الآخر» وإنعكاسها عليّ. هذه هي إحدى قواعد هذا المكان اليهودي - العربي، فأنت ما يراك الآخر، وفي خلال سنوات، «الآخر» هو الذي يعرّفك.

في خلال هذه السنين أصبح الفلسطيني هو الذي يعرّف الإسرائيلي، وفي خلال هذه السنين كانت النشرة الأخبارية في التلفزيون الإسرائيلي تعرّف الإسرائيلي بواسطة تقارير إخبارية عن الفلسطينيين، وكذلك كان العربي الإسرائيلي يعرّف اليهودي الإسرائيلي.

ومع ذلك اعتقدت أنه لا يكترث للشكل الذي أنظر فيه إليه وأعرّفه، ربما لأن «الأقلية» تعرف كيف تراها «الأكثرية»، وربما لأن إميل حبيبي تعوّد على أن هذه المجموعة اليسارية تشعر بالتزام نحوه، وتحاول إرضاءه، على الأقل كبادرة حسن نية كلامية وتظاهرية.

كيف رأيت نفسي في عينيه؟ إسرائيلياً شبعاً، يميل إلى التعب، غربياً جداً، يتيقّن الأساليب الليبرالية ومع ذلك أنا ممثل طبيعي «للأسياد هنا».

في النهاية، قال إميل حبيبي «أنتم الصنف الأسوأ، لأنكم تضعون الأقنعة على وجوهكم! فكل واحد منكم بإمكانه في وقت ما أن يتحول إلى حاكم عسكري متفوّق، والأسهل علينا أن نتعامل مع الفاشيين المهترئين».

---

(1) مباي، حزب «العمل» سابقاً، تزعمه بن غوريون وكان في السلطة حتى عام 1977، حيث تسلم السلطة حزب «الليكود».

(*) الكاتب محرر صحيفة «شيشي» العبرية الأدبية الأسبوعية.

(عن العبرية: سلمان ناطور)

عبد العال الباقوري

حبيبي.. ذاكرة شعب

شجرة زيتون كان يلقي الظل، يطرح الثمر، زيتاً فلسطينياً يضيء طريق الشعب، وبلسماً يداوي الجراح.. وهي عميقة غائرة. ولكنه أيضاً كان سمكة تلهم كل اللغات وفي الزيت الفلسطيني المغلي ثم المقلي.. منذ نعومة الأظفار.. فهل عرف إميل حبيبي السنديانة الفلسطينية نعومة الأظفار. إنه من جيل عمل بالسياسة صبياً، وشقي بها، وحملها على كاهله.. حتى لفظ آخر أنفاسه. كان في الثانية والعشرين، وكان ثالث ثلاثة حين تصدى في 1943 لسيطرة «اليهود» على الحزب الشيوعي في فلسطين، وبدأ «عصبة التحرر الوطني».. وكانت خطوة في مسيرة طويلة، سؤالها الأساسي الذي أرق حبيبي، ولا يزال يؤرق الكثيرين: هل يكون «اليهودي» دمقراطياً إذا مارس الإستيطان على حساب أبناء الشعب صاحب الأرض؟

ذات مساء في القاهرة قبل حوالي عامين سألته: «عمي إميل» إن السؤال هو: هل يعود «اليهودي» دمقراطياً إذا هاجر وهجر؟ رد علي: أنت شوقيني.

سامحك الله.. كان هذا لقائي الأول معه وجهاً لوجه. من قبل بادلته حواراً طويلاً حول الحروب الصليبية، بعد أن كتب بطريقته التاريخية في «اليوم السابع» الأسبوعية الرصينة التي كانت تصدر في باريس وكانت ردودي على صفحات «الاتحاد».. وهي غير «الاتحاد» التي أسسها والتي كانت ناطقة بإسم «راكاح» واستطاع - بجهد كبير - أن يحولها إلى صحيفة يومية، لا تزال لساناً فلسطينياً معبراً وبنوة عن آمال شعب.. وكانت «إتحادي» ظبيانية وارفة الظلال، تصدر في دولة محافظة، ولكنها تتحدث بلسان عربي مبين.. وقومي.. وتبادلنا سجالاً عنيفاً برقة، أو رقيقاً بعنف، وانتهى وكل

منا في خندقه، كان «حبيبي» قد تغيّر، بل تبدل، لكنه ظل فلسطينياً، ظل سنديانة فلسطينية راسخة الجذور، وقوية الفروع.

وما أرخى - كما كتب قبل شهور من رحيله - يده عن معوله الذي يضرب به الصخر كي يخرج الجيل الفلسطيني الراهن «من النفق إلى نور الشمس».

فقد كان يقينه أن هذا الشعب لا يفنى.. كما قال في «المتشائل سعيد أبي النحس» أو كما كتب في «مرثية السلطعون»: ما هي النهاية، هذا هو السؤال الذي لحّ عليه طول الوقت.. وهو السؤال الذي يلحّ علينا ونحن نودعه، فنودع فيه ذاكرة شعب، لن تغيب.. ولن يغيب، وتبقى كلمة وداع.. وعزاء للأسرة ولرفاق حبيبي وزملائه ومحبيه، بمن فيهم الذين اختلفوا معه ولكنهم ظلوا يحبون حبيبي.

(*) الكاتب رئيس تحرير صحيفة «الأهالي» المصرية.

أحمد المصلح

أعماله علامات مضيئة

مضى إميل حبيبي، واحد من ثلاثة مضوا، بعد أن تركوا بصماتهم الواضحة على الرواية العربية ذات الخصوصية الفلسطينية، وهم غسان كنفاني وجبرا إبراهيم جبرا وإميل حبيبي.

مضى إميل حبيبي بعد أن ترك لنا ثلاثة أعمال خالدات، تشهد عليه وتشهد له في آن معاً، وهي «الوقائع الغريبة في إختفاء سعيد أبي النحس المتشائل»، و«إخطية»، و«خرافية سرايا بنت الغول».

مضى إميل حبيبي بعد أن شغل الدنيا وملأ الناس، سواء كمفكر سياسي ماركسي، أو فيما انتهى إليه من برجماتية نظرية وعملية، والتي تجلّت في إستلامه جائزة الدولة العبرية، التي تحتل الأرض العربية الفلسطينية، والثقافة العربية في فلسطين المحتلة.

مضى الرجل كما يمضي الرجال الرجال، مؤمناً فيما يعتقد، ومدافعاً صلباً عن إيمانه ومعتقداته، وإلى حد التعصب الذي تخشوشن فيه لغة الحوار تارة، وتضيق به مساحات الود الذي لا يفسد للحب قضية في بعض الأحيان طوراً آخر. ولعل ذلك ناتج من أثر حدية النظرية في بعدها الستاليني المعروف، والتي تتلمذ إميل حبيبي على مفرداتها في ريعان الصبا وزهوة الشباب.

ولكي ننصف الرجل الذي صار في دار الحق، نشير إلى أنه تعرض لسهام كثيرة، بعضها كان موجعاً وحاداً، وخارج حدود حوار الرأي والرأي الآخر، وبخاصة تلك السهام التي أصابت إنسانيته ووطنيته ونضاله الطويل وربما جدوى كتاباته في بعض الأحيان، ووفق أسلوب تصفية الحسابات المعروف.

والمهم أن إميل حبيبي الجسد قد مضى، أما أعماله الأدبية فستبقى عنواناً رئيسياً، وعلامات مضيئة على الخارطة الأدبية الفلسطينية والعربية. وليكن ذكره مؤبداً.

(*) الكاتب شاعر وناقد فلسطيني مقيم في الأردن.

موسى برهومة

إميل حبيبي - عبقرية المفارقة

بانطفاء قنديل الروائي الفلسطيني إميل حبيبي، تسدل الستارة على واحد من أكثر «الحالات» الأدبية ـ السياسية الفلسطينية خلافية ومثاراً للجدل طوال أكثر من خمسين عاماً، منذ طفق يؤسس «عصبة التحرر الوطني الفلسطيني» في أوائل الأربعينيات وحتى تسلمه جائزة الدولة الإسرائيلية العليا للأدب أوائل التسعينيات، مروراً برواياته التي أحدثت قطيعة «ابستمولوجية» مع الميراث السردي المعاصر، وانخراطه في العمل البرلماني من خلال عضويته في الكنيست الإسرائيلي ومطالبته الحثيثة تحقيق مساواة بين العرب واليهود، وإقامة دولتين متجاورتين على أرض فلسطين.

ولم يركن حبيبي، في سجالاته ورؤيته المختلفة لوقائع الأحداث، إلى ذخيرته الإبداعية الثرية، وموهبته الأدبية وثقافته التاريخية والتراثية فحسب، بل عضد تلك الذخائر بتشبع سياسي وحزبي خفف، من خلالهما، من غلواء الأطروحات الراديكالية العبثية التي ظلّت تسيج بمطلقاتها الفعل السياسي والثقافي الفلسطيني والعربي على حد سواء، فشرع حبيبي بدافع من ذلك الإشتباك يقتحم «التابوات» السياسية و«المحرمات الوطنية» مدججاً بحافز حماية حقوق شعبه العربي الفلسطيني، وانتزاع الإعتراف به، وسط محيط من الكراهية والعداء الإسرائيلي. وقد نجح حبيبي في ذلك إلى حد بعيد.

وإن يكن صاحب «المتشائل» قد أثار حفيظة الكثيرين بتسلمه جائزة إسرائيل الأدبية في ظروف تصعيد القمع الإسرائيلي للإنتفاضة الفلسطينية، فإن ذلك لا ينبغي أن يحرف الأنظار عن الدور الريادي والطليعي الفذ الذي اضطلع به حبيبي ورفاقه من فلسطينيي عام 1948 على المستوى السياسي والمطلبي والمعاشي. كما لا ينبغي لتلك الحادثة، التي تكتنفها غلالات كثيفة من الإلتباس، أن تنسينا الموقع الأدبي المتميز الذي بوأ حبيبي مكانة مرموقة في سياق السرد العربي المعاصر. وهي مكانة أقر بها الأعداء والأصدقاء على حد سواء، وفي ذلك تكمن مفارقة حبيبي وعبقريته!

(*) الكاتب ناقد فلسطيني مقيم في الأردن.

يوسف أبو لوز

بقي الروائي.. ورحل السياسي

بين إميل حبيبي السياسي وإميل حبيبي الروائي والأديب تمتد مسافة زمنية طولها أكثر من عشرين عاماً، فقد انخرط حبيبي في العمل السياسي منذ عام 1943، في حين نشر أول رواية له «سداسية الأيام الستة» في عام 1972. هناك - إذن- 30 عاماً بين حبيبي السياسي وحبيبي الأديب، والأسبق في شخصية هذا الروائي الفلسطيني هو الجانب السياسي ومع ذلك تطغى الشخصية الأدبية على إميل حبيبي وذلك في المدى العربي أو في المدى الفلسطيني خارج فلسطين، وإذا اعتبرنا أن شخصيته الأدبية لم تطغ على شخصيته السياسية فأنهما - على الأقل- في مستوى واحد، وباختصار، فإن المتبقي الآن من سيرة إميل حبيبي هو الجانب الأدبي، أما الجانب السياسي فإنه سيذهب إلى النسيان.

لقد كان إميل حبيبي السياسي موضع خلاف وجدل وسجال نظري وفكري على مدى السنوات الساخنة في إطار التفاوض الفلسطيني - الإسرائيلي وكذلك برزت مساجلات أخرى ذات طابع إحتدادي في ما يتعلق بطروحاته المباشرة تجاه قضايا السلام والتطبيع الثقافي والحوار العربي- الإسرائيلي، وقد ارتفعت وتيرة الخلاف مع إميل حبيبي على مستوى المثقفين العرب كافة عندما تسلّم جائزة أدبية إسرائيلية في عام 1992 من إسحاق شمير، رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق.

لكن كل هذه السيرة السياسية التي عليها الكثير من التحفظ من جانب مثقفين عرب كثر لم تلق أية ظلال ثقيلة على سيرة إميل حبيبي الأدبية، فالروايات الست التي نشرها منذ 1972 كوّنت في مجملها وعلى قلتها «حالة» روائية فلسطينية خاصة.. وتتبع خصوصية أدب إميل حبيبي من

ثلاثة جوانب:

1 ـ تركيزه على الشخصية العربية الفلسطينية داخل إسرائيل.. ثم رصد تحولات هذه الشخصية وبناء جوانبها الإنسانية الثابرة على البقاء والإحتفاظ بالإسم العربي الفلسطيني وسط غابة من أسماء الأعداء.

2 ـ إنتباهة إميل حبيبي إلى التراث العربي القديم بوصفه مرجعية راسخة تعزز، بالتالي، إلحاحه الأدبي على حضور الشخصية الفلسطينية داخل الكيان الإسرائيلي.

3 ـ وأخيراً، هناك إطار عام يحوم حول كل هذه المضامين في خطاب إميل حبيبي، وهو الإطار الروائي الحريص على شكل فني ينزع إلى المعاصرة أو الحداثة المقبولة من الضمير الشعبي الفلسطيني والعربي الذي يتوجه إليه إميل حبيبي في محصلته الإبداعية.

لقد بقي إميل حبيبي في حيفا العربية الفلسطينية طيلة حياته، وأوصى أن يكتب على شاهدة قبره عبارة تقول: «باقٍ في حيفا». وإن هذه العبارة ـ الوصية لها مغزاها ومدلولها الأدبي والسياسي معاً، بل لها إحالاتها النضالية التراجيدية الطويلة التي تقول لنا أن المناضل السياسي و«المناضل الأدبي» يجسد في بقائه الصبور ـ حياً وميتاً ـ في أرض بلاده.. يجسد فكرة التشبث الأبدي باللغة والشخصية والهوية والحضور.. وكلها عناصر مواجهة مع عدو يرعبه مثل هذا البقاء الصبور في الحياة وفي الموت.

حتى في الموت فإن إميل حبيبي باقٍ في حيفا، وهذا الخطاب المعلن والمكتوب وصية والمحفور على شاهدة القبر هو جزء من خطاب إميل حبيبي الروائي. ويتوجه هذا الخطاب مباشرة إلى صميم الإسرائيلي الجاثم بالقوة على صدر حيفا..

تلك هي بعض قيم أعمال هذا الروائي الفلسطيني الذي اعتبر في القراءات النقدية العربية روائياً «قاسياً» في توجيه نص إبداعي عربي فلسطيني نحو «القسوة» الإسرائيلية المبنية على توارتية يهودية تحاول دائماً وأبداً تزييف التاريخ والجغرافيا.. ومعهما، الإبداع.

لهذا كله سيبقى من إميل حبيبي ذلك الروائي المبدع الفنان.. أما السياسي فيه فإنه سينسى مع مرور الزمن.

(*) الكاتب شاعر فلسطيني مقيم في الأردن.

فخري قعوار

في رثاء حبيبي!

في رثاء الراحلين، لا يصح إلا أن نتغاضى عن كبواتهم أو أن نلجأ إلى السكوت. وقد اخترت الإحتمال الثاني، إكراماً لروائي فلسطيني كبير، لا ريب في قيمته الروائية والأدبية، وهذا ما يعرفه القرّاء العرب، والنقّاد والدارسون الذين كتبوا حول أدب إميل حبيبي.

وفي رثاء الراحلين، لا يصح أن نجعل من الكبوات أعمالاً جليلة ومواقف بطولية، ولعل السكوت عن فحش القول في مثل هذه الحالة، هو الذي يوفّر لنا حسن التخلّص من الحرج.

وقد أذهلني ما كتبه أحد الزملاء، في رثاء إميل حبيبي، حين غفر له إستلام جائزة «التقدير» من يدي إسحق شامير، رغم كل النصائح التي وجهت له، خاصة أن جائزة «الدولة» منحت له في يوم الخامس عشر من أيار عام 1992، وهو اليوم السنوي الذي تصادف فيه ذكرى إغتصاب فلسطين.

منذ البداية، قلت إنني اخترت السكوت في هذه المناسبة، وقلت أيضاً أن إميل حبيبي روائي كبير، لكن ما جاء به الزميل المشار إليه، دفعني إلى توضيح أمر، أشعر أنه لا يحتمل السكوت عليه، ودفعني إلى إبداء الرأي حول أدب الرثاء، أعني أدب ذكر مناقب الموتى وأصوله ومقتضياته.

يخاطب زميلنا الكاتب المرحوم حبيبي، معاهداً إياه أن يقول له «كلمة صادقة»: (أنك كنت فارس الكلمة الفلسطينية الصادقة، وأنك بدأت مناضلاً كبيراً، وانتهيت مناضلاً كبيراً، ولم يعثر جوادك على مدى أكثر من نصف قرن لو مرة واحدة)!

هل يبرر الرثاء، أو حالة الوجد والحزن، أن نقول في الرجال ما ليس فيهم؟ وإلى أي مدى تكون لمثل هذا القول مصداقية عند القارئ؟

إن تجاهل الكبوات والنبوات والهفوات، أمام جلال الموت، يعتبر خير تكريم للراحل، والوقوف عند الأعمال الطيبة يعزز هذا التكريم ويسمو بذكر الفقيد، أمّا أن يبلغ بنا الأمر إلى حد قلب الحقائق، وتحويل الكبوة إلى موقف نضالي، فهذا ما جعلني أسحب مقالي المقرر نشره في هذا اليوم، واستبداله بهذه الكلمة، التي أشعر أنني أخالف فيها ما اتفق عليه مع نفسي دوماً، وهو عدم التعرّض لرأي زميل، أو الدخول معه في اختلاف حول إجتهاداته.

غير أن ما ذهب إليه الزميل، يخرج من كونه إجتهاداً أو وجهة نظر، لأن المطل على حياة إميل حبيبي، والمطل على العبارة المقتطفة من كلام الزميل، يعرف على الفور أن هناك مغالطة سافرة، لوت عنق البديهيات، لأغراض سياسية محضة.

فمن منا يجادل أو يعارض قدرة إميل حبيبي الروائية؟ ومن ينكر عليه إبداعه؟ لكن سفح الكلام، وصرف وابل من الإطراء، تحت ستار المناسبة الحزينة، لا يبرره منطق، ولا تعرفه تقاليد الرثاء العربية أو غير العربية، ولا يدخل في باب الموضوعية، ولا حتى في باب حصة التعبير المدرسية.

وليهدنا الله سواء السبيل!

(*) الكاتب أديب أردني.

عوني بشير

نكهة فلسطينية متميِّزة

قرأته في بيروت، وعرفته في لندن.

حين قرأته، كان «المتشائل، أبو سعيد النحس» نصاً طازجاً، مضمّخاً بنكهة فلسطينية متميزة، تبحث في المكان، عن روح المكان على ظهر حمار.

نص عبثي، وإنسان عبثي وحلّ عبثي، وحده المكان ليس عبثياً.

قبل ذلك النص، لم أكن قد عرفت أو رأيت فلسطينياً واحداً من فلسطينيي إسرائيل سوى محمود درويش، الذي خرج ولم يعد، فأصبح لحظة انضمامه إلينا واحداً منا. إميل حبيبي لم يخرج، بقي هنالك، واحداً من المرابطين وكنت ظننته لا يخرج أبداً.

لكنه خرج، قبل سنوات عديدة، ربما عشر سنوات، فما عدت أذكر أول مرة رأيته فيها، لكنني رأيته هنا في لندن، كان يجلس في المقعد الأمامي من سيارة صغيرة لصديق مشترك، حين انحشرت في المقعد الخلفي، مع عدد من الأصدقاء، في طريقنا إلى أمسية شعرية في «سوَاس».

بصعوبة أدار رأسه ربع إستدارة، ومد يده يصافحني. كان إميل حبيبي عظيم الجسم، وبدا لي أعظم مما هو في تلك اللحظة، فهو وحده يحتل المقعد الأمامي، ويفيض بجسده عن المقعد سائلاً مثل البحر على مقعد السائق بجواره، بينما كان أربعة منا في المقعد الخلفي.

سألني وهو يصافحني: «من أي بلد في فلسطين أنت يا عوني»؟ قلت «من أبو شوشة»، قال وكأنه يضحك «يتشاءل»: «أبو شوشة أعطتك عمرها»، سألته: «هل تعرفها»؟ فأجاب: «لا يوجد شبر في فلسطين لا أعرفه ولا يعرفني».

توقفت السيارة أمام فندق مجاور لسواس كان ينزل فيه، فترجل من السيارة وترجلت ورأيته وجهاً لوجه، كان يضع على رأسه قلبقاً روسياً. كان الطقس بارداً وكانت الحرب الباردة ما تزال قائمة، لعلها كانت آخر أيام بريجنيف أو أندروبوف أو تشرنينكو. لا أذكر بالضبط، ولكنني أذكر أن الطقس كان بارداً، وبدا لي أن القلبق الروسي في مكانه تماماً، فهو رادع جيد للبرد، وحاجز دفاعي سميك لحماية ما في رأسه من أفكار.

أشار علينا بمقهى الفندق، نجلس ونردش إلى أن يكتمل الحضور وتبدأ الأمسية، امتدت الجلسة وتشعبت من أبو شوشة وحيفا والناصرة إلى الأدب والرواية وغابرييل غارسيا ماركيز.

في تلك الجلسة شعرت بأن فلسطينيّي إسرائيل يختلفون عن فلسطينيّي اللجوء في البلاد العربية.

بدا لي أن فلسطينيّي إسرائيل يختلفون في بنائهم السيكولوجي عنا نحن الذين عاشرنا الأنظمة العربية وماشرتنا.

بادىء ذي بدء، خيّل إليّ أنه إختلاف ناشىء عن عدم خوضهم لتجربة الخوف والرحيل والمخيمات، ولأنهم لا يأكلون من طحين وكالة غوث اللاجئين، فها هو إميل حبيبي يتحدث عن خبز الطابون بفخر واعتزاز.

مرت أيام كثيرة وسنوات، تعرفت خلالها على عدد كبير من فلسطينيي إسرائيل، اكتشفت من خلالهم أن لا علاقة لخبز وكالة الغوث أو لخبز الطابون في اختلاف اللاجئين عن المرابطين، قد تكون للخبز علاقة ما، لكن ليس بالخبز وحده يكون الإختلاف.

فلسطينيو إسرائيل ظلّت علاقتهم بالأرض قائمة، ومن خلال تلك العلاقة قامت علاقتهم بالعدو. مواطنون من الدرجة الثانية في دولة العدو، ربما، لكنهم يتمتعون بشيء من الحرية، أما نحن الذين انخلعنا من الأرض وهربنا من «دولة العدو» إلى دولة الشقيق فقد عشنا مواطنين من الدرجة الثانية أو العاشرة وبلا أي شيء من الحرية.

كانت هذه نظرتي الدائمة لإميل حبيبي وكل الفلسطينيين المرابطين في فلسطين، إلى أن أطلّت علينا أوسلو، فمارس إميل حبيبي حرية هائلة في الدعوة لها. بالنسبة لنا نحن الذين انخلعنا من الأرض ومن الحرية، جاءت أوسلو لتخلعنا من الحق ومن شعورنا بالحق والعدل والإنتماء، حتى المنفى حرمتنا منه أوسلو. خيارك الوحيد، أن تكون فيها أو تكون معها، لا مفرّ ولا فرار.

ذات يوم اتصلت بي إذاعة الـ «بي.بي.سي.» الإنكليزية، تسألني عن رأيي في إعلان دولة إسرائيل عن منح جائزتها في الأدب لإميل حبيبي. وكان رأيي أن يرفض حبيبي الجائزة لأنها جائزة من حكومة دولة قامت على أشلاء شعبه، ولو كانت جائزة من كتّاب ومثقفين يهود فلا مانع من قبولها وتسلمها بفخر. لكن أن يسلمها له إسحق شامير فتلك كبيرة. كان البرنامج حياً على الهواء بالهاتف، وكان

إميل حبيبي على الخط الآخر في فلسطين المحتلة. لم أسمع البرنامج ولم أسمع ما قال، لكنه بعد أيام تسلم جائزة الأدب والسلام من إسحق شامير، وبعد عام التقينا في لندن، محمود درويش وإميل حبيبي، وتصافحنا على ود واختلاف وعلى وعد باللقاء، وأنا ما زلت على الوعد.

(*) الكاتب فلسطيني، وهو من محرري مجلة «المجلة» اللندنية.

محمد السيد سعيد

لا يجوز اختصاره

أضع إميل حبيبي في مكانة المعبر بإخلاص وبصورة حميمة للغاية عن الضمير الراديكالي الإنساني الأممي، خلال النصف الثاني من القرن العشرين، بكل تموجاته وذبذباته المختلفة، وتفاعله العميق جداً مع التطور السياسي والثقافي في العالم. كل هذا من منظور فلسطيني، مؤمناً بروح الأممية ووحدة مصير الإنسانية، مدفوعاً بصورة المشهد الذي يعيش فيه الشعب الفلسطيني، والمأساة الفريدة من نوعها في التاريخ الإنساني، ولا يجوز إطلاقاً إختصار سيرة حياته ونضاله في المرحلتين القصيرتين كسياسي، عاش مرحلة 1948، والمرحلة الأخيرة، إذ نجد بينهما حياة ثرية في كل المجالات. وأنا مع الاجتهاد القائل بالبحث عن صيغة ما للتعايش الصراعي مع إسرائيل، وأراه من الاجتهادات المشروعة، ولا أعتبرها جرباً أو تفسيراً للخيانة أو إنتهازية، وبغض النظر عن الاختلاف مع هذه الاجتهادات إلا إنها تبقى مشروعة، في إطار الإيمان بالتعددية، وهو ما عكسه إميل حبيبي خلال السنوات الأخيرة. وليس بالضرورة أن أتفق مع إميل حبيبي في الإيمان بهذه الاجتهادات، لكنني أرحب بها جميعاً، في ظل عدم التجريح إطلاقاً، باعتباره نموذجاً مخلصاً للمثقف العربي، حاول أن يجتهد. ومن هذا المنطلق أرى موقع إميل حبيبي كمبدع وروائي أسهم في التأثير من موقعه كسياسي، رغم دوره المعروف في تأسيس الحزب الشيوعي الفلسطيني، فهو من طراز المبدعين القلائل في حياة الأمم.

(*) الكاتب مفكّر مصري.





الصورة الأولى:
إميل حبيبي لبلند الحيدري (مهرجان أصيلة الثقافي في المغرب، آب 1994): أحمد عبد المعطي حجازي أخذ مكاني وأنت تأخذ صورتي، ماذا أبقيتم لي؟!

الصورة الثانية:
باريس، مع الأدباء والمفكرين: هشام جعيط وأدونيس وجورج شحادة ويوسف إدريس وأمين معلوف.

أنطوان شلحت

باقٍ فينا أيضاً..

أبدأ من نهاية السؤال: كيف أبلّغ بكلمات موجزة بعض الوفاء بحق معلم جيلنا ـ بتمام ما يعنيه هذا الوصف ـ وهو ما تعجز عن تبليغه كل الكلمات التي أنطقنا حروفها على أقصى مقدارها، طولاً واتساعاً؟

في لحظات تتوارد على المخيلة ذكريات عديدة اتصلت معك في عشرية واحدة من السنوات كنت خلالها المعلم وكنا، أنا ومن بقي من أبناء جيلنا، تلاميذك ومريديك في الصحافة كما في السياسة، في كتابة العمود كما في كتابة المقالة الأدبية. وفي كل هذا، وغير هذا كذلك، كنت أنت وما من أحد سواك المرجع الثقة ـ الملاذ الأخير في شمول الإحاطة وفي عمق النظرة إلى بواطن الأمور ومغزاها العميق لا إلى الحالات والأشياء في ظاهرة أحداثها ووقائعها.

يا معلمنا!

قيم عديدة كتبت لها سيرة حياتك الخلود وتجعلك، ما بقيت في حينا، باقياً أيضاً فينا رغم الطرق التي باعدت بيننا ولم تقدر على أن تنأى بك عن موقع النبض في كل ما كان ينزف منّا. لكن قيمة واحدة يظل لها الوقع الأكبر: هذه المزاوجة السحرية بين أشياء الكاتب وبين أشياء المناضل الذي لم تلن له قناة. هذه المزاوجة التي استطعنا أن نفخر بعدها بأن لنا من عالم الإبداع سفيراً في دنيا النضال وبأننا اغترفنا من سفارتك هذه غذاء روحياً وعقلياً ممتعاً يقيناً، بعد رحيلك، عثرات الطريق مثلما كان العهد به وأنت في عالم الأحياء.

(*) الكاتب ناقد فلسطيني يقيم في عكا.

فاروق عبد القادر

«سرايا» من أهم الروايات العربية المعاصرة

رغم كل الخلافات كان إميل حبيبي صديقي. كنت أقول له: أبو سلام، أهل مكة أدرى بشعابها.

ولكن مهما اختلف تقييم مواقف حبيبي فقد كان متمسكاً ببديهية بسيطة جداً، وهي أنه إبن الأرض الفلسطينية ولن يبرحها ولن يقيم في أي مكان غيرها، وهذا ما حدث حتى وفاته.

وكان لإميل حبيبي موقف متماسك، فقد اعتبر الجائزة التي استلمها جائزة للأدب الفلسطيني المكتوب بالعربية في إسرائيل وليست له. وقد تبرع بالجائزة لـ «الهلال الأحمر الفلسطيني» لعلاج جرحى الإنتفاضة.

روايته «سرايا بنت الغول» من أهم الروايات العربية المعاصرة. أما رواية «إخطية» فإنها تتعرض بشكل رمزي لحادثة أعاقت المرور في حيفا.. لكنها في الحقيقة ليست حادثة مرور وإنما أعمال فدائية تتجرّت فغيّرت النظرة من كلا الجانبين.

لو وضع قارئ «إخطية» في إعتباره أن ما عطّل المرور ليس مجرد حادث وإنما أعمال فدائية لاستطاع أن يفهم الكثير.

إميل حبيبي يعيش داخل الزنزانة الإسرائيلية، فلابد أن يستخدم التقنية في كتابته. يستخدم الرموز والتورية والإحالة والإشارة من بعيد، ويقيم ما يشبه شيفرة بينه وبين القارئ.. كتابته أشبه بدقات المساجين على جدران زنازينهم.. هذه الدقات هي الوسيلة الوحيدة المتاحة لهم للتفاهم مع بعضهم وتوصيل الرسائل.. في كتاباته شيفرة تشبه ذلك.

إميل حبيبي من أعظم الكتّاب العرب إحتفاءً باللغة العربية ومعرفة بأسرارها وإجادة لاستخدام ألفاظها وتعبيراتها، وحسن استخدامه للغة يتجلّى في جانبين. أولهما حسن توظيف الكلمة والتعبير بالمعنى القاموسي وثانيهما استخدام اللغة بشكل طازج تماماً يفجّر دلالات أخرى غير المعنى التقليدي.

(*) الكاتب ناقد مصري.

مؤنس الرزّاز

هزّ قناعات راسخة

وفاة إميل حبيبي مناسبة حزينة للمطالبة بأبجدية الحريّة، بأبسط حقوق المبدع، لا بل الإنسان، أقصد حق الإختلاف، كان هذا الروائي عصيّاً على الإرهاب الفكري المألوف والسائد، فطرح مواقفه الإشكالية من إسرائيل ومن فن الرواية، وقفنا معه في رحلة الكشف والإكتشاف على صعيد الإبداع الروائي، لكننا اختلفنا معه في مواقفه الأخيرة من إسرائيل، ولأن بلاد الضاد لا تعرف معنى الإختلاف، فقد رجمه بعضنا بأيسر تهم تاريخنا، أي الخيانة العظمى، فردّ عليهم بعد الموت حين طلب أن تُكتب على قبره عبارة: «باقٍ في حيفا».

وإذا كان هذا رده علينا، نحن الذين حظرنا حق الإختلاف وحرّمناه، فإنه رد علينا قبل ذلك بروايات تسعى إلى تحرير المخيلة المقيدة من قانون جاذبية المألوف الأدبي، هكذا فاجأتنا رواية «المتشائل»، وما سبقها وما تبعها عموماً، إذ هزّ حبيبي قناعات كانت راسخة لا تقبل النقاش على صعيد الإبداع الروائي.

ومن قبره الحيفاوي سيظلّ يأتينا صوت إميل حبيبي، داعياً إيّانا إلى الإكتشاف والإنفتاح والحوار، والإحتكام إلى المخيلة، والتجرّؤ على ارتياد الدروب الجديدة، مهما كان حجم المخاطرة، فإلى متى يظلّ «الإبداع» مرادفاً لـ «البدعة» في بلاد الضاد؟!

(*) الكاتب روائي أردني.

بكر عويضة

وداعاً.. إميل حبيبي

عاش إميل حبيبي مناضلاً من أجل فكره، وأسلم الروح صباح أمس منسجماً مع فكره ومع نفسه. على هذه الصفحة، في مثل هذا اليوم من كل أسبوع طوال الخمس سنوات الماضية، كان قراء «الشرق الأوسط» على موعد مع انسجام «أبو سلام» مع فكره، ومع نفسه. تكفي لحظة تأمل في معنى اختيار إميل حبيبي «سلام» إسماً لنجله البكر، حتى ندرك كم من السنين عاش حلم السلام - القضية في وجدان إميل حبيبي قبل مولد سلام - الإبن، قبل أكثر من ثلاثين سنة. السلام قضية عاش إميل حبيبي مدافعاً عنها، وظلّ طامعاً في المزيد من المساهمة، لكنه رحل راضياً عما قدمه لأجلها.

كان السلام هاجس مقالاته هنا، موضوع محاضراته هناك، ديدن أحاديثه في الندوات والمهرجانات، وإلى وسائل الإعلام. بسبب السلام أُنصف إميل حبيبي، وبسببه ظُلم. أُنصف حين فُهم موقفه ووضع في إطاره الصحيح، إطار انسجام الرجل مع فكره، وظُلم حين عومل موقفه خارج ذلك الإطار فحُمّل الموقف أكثر مما يحتمل، وتحمل إميل الإنسان، الفنان، المبدع، ما يجب أن يتحمله إميل المناضل.. فأثبت، غير مرة، في غير تجربة، وطوال سنين، إنه «جمل محامل»، تماماً مثلما كان يحب أن يصف صمود شعبه.

كان من الإنصاف لإميل حبيبي فهم حماسته للسلام على أساس أنه السلام الذي يعطي الشعب الفلسطيني حقه في سيادته فوق أرضه، في دولته (وكان يحرص دائماً على أن يضيف: «.. وعاصمتها القدس الشريف»). وانسجام إميل حبيبي مع نفسه ومع فكره يعود إلى ما قبل النكبة الأولى (1948) عندما كان في طليعة المثقفين المناضلين الذين أيّدوا قرار التقسيم الصادر عن الأمم

المتحدة (22 نوفمبر / تشرين الثاني 1947)، وآمنوا بحل تتعايش من خلاله دولتان وشعبان.

في المقابل، كان من الظلم لإميل حبيبي فهم موقفه على أنه مجرد حماسة لأي سلام. فلو كان هذا هو موقف الرجل لما كان في نضاله متصدياً لسياسات الحكومات الإسرائيلية، نزيلاً في سجونها أكثر من مرة، ومطارداً من قبل متطرفي اليمين.

كان من الإنصاف لإميل حبيبي وضع حماسته في تأييد العملية السلمية التي بدأت في مدريد، وعرجت على أوسلو، في سياق انسجامه مع فكره ومع نفسه، مثلما أن من الإنصاف له وضع موقفه من قضية «التطبيع الثقافي» في إطار الدعوة إلى إقامة جسور حوار مع المثقف الإسرائيلي المؤيد لحقوق الشعب الفلسطيني، بهدف تعزيز ذلك التأييد، تنميته، وتطويره. كذلك، كان من الإنصاف لإميل حبيبي فهم موقفه من مسألة منحه جائزة إسرائيل الأدبية. هنا لا بد أن نسجل أننا كنا شهوداً على الحالة النفسية التي مرّ بها إميل حبيبي إزاء تلك المسألة، فهو لم يترك صديقاً، أو مسؤولاً يعرفه، إلا واستمزجه الرأي، كان يسأل: أقبل أم لا؟ ومن الجائز القول أن إميل حبيبي أجرى بنفسه إستفتاء على نفسه، وكانت النتيجة: نعم، إقبل الجائزة. في المقابل، من الظلم للرجل عزل قبوله تلك الجائزة عن مجمل موقفه الفكري والسياسي، الذي كان يحوش على خلفيته نضالاً مريراً من أجل إعتراف إسرائيل بكينونة وحقوق الفلسطينيين الذين بقوا فوق أرضهم.

«يا بتشرب من رأس العين.. أو بتضل عطشانين».. كان إميل حبيبي يردد هذا المثل الشعبي في توصيف حالة الرفض المطلق لأية تسوية سلمية. ويسجل لإميل عشقه للأمثال الشعبية، وبراعته في تطعيم المقالة السياسية بها، لكن حماسة إميل حبيبي في الرد على التيار الرفضي لم تقتصر على إنتقاء الأمثال المعبّرة، بل تجاوزتها إلى العبارة اللاذعة، حتى أنه بدا في بعض عباراته متطرفاً في الرد على من اعتبرهم متطرفين. وهي ملاحظة نقلناها له ذات مرة، فتقبلها بصدر رحب، ثم أردف: معلش، سامحونا، وتحملونا.. لقد تحملنا الكثير.

لن يطل إسم إميل حبيبي مرة أخرى، كل يوم جمعة، هنا.. على هذه الصفحة. كنّا أحياناً نهاتفه مستفسرين عن صحته، أو عن مقاله إذا تأخر.. ونادراً ما كان يتأخر. فإذا ما رفع سماعة الهاتف، قلنا: «السلام على أبي سلام»، وكان يضحك، كان يحب هذا النداء.. مرة أخرى، ودائماً: السلام على أبي سلام.

(*) الكاتب فلسطيني وهو محرر صفحات الرأي في صحيفة «الشرق الأوسط» اللندنية.



رام الله ـ 1996/4/13
تصوير: ياسر عبد ربه

سلمان ناطور

إميل حبيبي.. في انتظار الفجر الآتي

لم يكن مفاجئاً رحيل هذا الرجل الصحراوي، الذي كان يجيد القبض على زناد المفاجأة، إلا موته فقد كان متوقعاً، ولم يترك الداء الخبيث فسحة له ليستعد لمفاجأة إستعادة الحياة، أو للخلاص من البراثن اللئيمة التي قبضت على روحه وأنهكت جسده.

ليس سهلاً أن يصبح إميل حبيبي ضميراً غائباً، لأن حضوره ينتصر على قواعد اللغة، ويرفض أن يكون في محل إسم الفعل الناقص أو خبره، لكننا من الآن وصاعداً سنضطر إلى التسليم بهذه الواقعة الميتافيزيقية التي اعتدنا أن نلوّنها بشعار: الغائب عنا، الماثل بيننا.

عرفت إميل حبيبي منذ حوالي ربع قرن، وهذه ليست مجرد معرفة، إنما كانت لقاء مطولاً، في مكاتب جريدة «الاتحاد»، في هيئات الحزب والجبهة، في مئات اللقاءات الثقافية والأدبية، في المكتب والمقهى والبيت، ولكن ربما أن السيارة كانت أكثر أماكن لقاءاتنا في سفرات لا حصر لها ولا عد على شوارع الوطن. كان رجلاً صحراوياً ليس فقط بفراسته وبصيرته الثاقبة وذكائه الفطري، بل أيضاً بعشقه للمغامرة حتى حدود العبث، وقد استبدل الصحراء بالبحر، لأنه كان يتوق إلى «عالم بلا أقفاص» إلى مساحة بلا حدود، إلى أرض اللانهاية، وطن المبدعين والمفكرين.

آخر لقاء جمعنا كان في حيفا، قبل أقل من شهر، على شرفة بيت في شارع عباس، هو بيت المرحوم إميل توما، جلسنا على الشرفة المطلة على الميناء والبحر ليستحضر من ذاكرته أيام الطفولة والشباب لفيلم سينمائي عن حياته، وكان سينتهي بلقاء مصوّر مع محمود درويش، وحضر محمود لتصوير لقطات هذا المشهد، لكن في اليوم المقرر للتصوير سرق القدر روحه ولم يبق

للشاعر إلاّ أن يطبع على الجبين الشاحب قبلة ويبدأ كلماته بقوله: «الآن وأنت مسجّى على صوتك ونحن من حولك، رجوع الصدى من أقاصيك إليك».

على الشرفة، نظر إلى البحر وإلى حيفا، وقال: «لم يتغير البحر، حيفا تغيرت، هناك كانت بساتين اللوز.. ومن هذا الموقع كنا ننزل إلى البحر عندما كنا أطفالاً. نستيقظ مع إنبثاق الفجر ونركض إلى البحر، نسبح ونعود بعد طلوع الشمس لنذهب إلى المدرسة.. هكذا كان يبدأ نهار صيفنا عندما كنا صغاراً.. وفي أحد الأيام نزلنا إلى البحر ولكن الفجر طال كثيراً ولم تشرق الشمس.. سبحنا وأنهكتنا السباحة ولم تشرق الشمس، دب في نفوسنا خوف شديد من أن «خربطة» أصابت قوانين الطبيعة فعدنا خائفين إلى بيوتنا.. وعندما حدّثت أمي ولم تشرق الشمس بعد، قالت وهي تضحك: «هناك ظاهرة اسمها الفجر الكذاب، ففي منتصف الليل يصبح لون السماء بلون الفجر، ولكنه فجر كذاب». وتوقف إميل عن الحديث ثم قال: «والله فكرة.. أجتني الفكرة.. سأسمي كتابي الثالث عن حيفا.. الفجر الكذاب.. والله، معقول إحنا عايشين في مرحلة الفجر الكذاب؟».

أعرف أنه بدأ بكتابة روايته الثالثة عن حيفا بعد «إخطية» و«سرايا بنت الغول» ولا أعرف إن كان أكملها أم لا.. لكنني لا أعرف إلى أي مدى تأثر بهذه القصة فظلّ طول حياته ينتظر قدوم الفجر، الفجر الآتي كان مصدر تفاؤله.. الإنتظار.. النظر إلى البعيد.. والواقع الذي اصطدم به كان مصدر تشاؤمه. إميل حبيبي هو الوحيد الذي كان باستطاعته اختراع كلمة «المتشائل».. لأنه كان صحراوياً بفراسته وباستبداله الصحراء بالبحر، وفي أدبه عرف كيف يغرف من بحر وينحت في الصخر، وحتى بعد أن تجاوز السبعين من عمره لم يقتل الفتى النزق المشاغب الذي ظلّ فيه منذ كان يركض إلى الشاطىء، أو يغازل صبايا الحي بالإشارة والغمز والرسائل التي حشرها في شقوق جدار راهبات الناصرة.

لم يكن سهلاً أن تعمل مع إميل حبيبي، لأنك لا تعرف متى يفاجئك، كانت المفاجأة بالنسبة له هي الإبداع والخلق، وكانت تأتي عندما يتحرك الفتى الذي فيه، عندما ينتصر المبدع على السياسي، كان مبدعاً في السياسة والفكر والأدب وحتى في حسناته كان مبدعاً وفي سيئاته أيضاً.. وإذا كان أبو العلاء المعري رهين المحبسين، فإميل حبيبي كان رهين الإبداع.

غريبة فيه جدلية العلاقة بين السياسي والمبدع، فهو لم يضع على رأسه قبعتين، ولم يعان من السكيزوفرينيا (إنفصام الشخصية) بل اهتدى منذ صغره إلى الصيغة التي تضمن التعايش السلمي بين أن تكون سياسياً خاضعاً لإملاءات الجماعة وبين أن تكون كاتباً لا تتحرك إلاّ وفق ما تمليه عليك الذات، وحتى عندما تحرر من «القفص» التنظيمي وخرج إلى «عالم بلا أقفاص» فلم يتخل عن السياسي الذي كبر معه وفيه، ظلّ يكتب عن الفجر الآتي، لكنه، كما قال لي في لقائنا الأخير،

وجد نفسه أمام واقع أكثر شراسة، ففي الماضي حينما كان ملزماً باتخاذ القرار السياسي كان يجد الإطار الذي يشاركه في اتخاذ القرار، فيخفف من عبء المسؤولية، ولكنه بعد أن ترك الإطار، أصبح قراره فردياً، وصار الحمل أثقل بكثير، صار الخوف من ارتكاب الخطأ أشد وأقسى، صارت دراسة حيثيات القرار مهمة شبه مستحيلة، لأنها تجري بينك وبينك، ولا شريك لك.

بعد هذه السنوات الطويلة من المعايشة مع إميل حبيبي، هل أستطيع الجزم بأنني كنت أعرفه.

لا أظن أن ما قاله إميل حبيبي وما كتبه هو كل ما أراد أن يقوله ويكتبه، وفي السنوات الأخيرة عندما كان يبدو أنه يعود على نفسه في كتاباته الصحافية والأدبية فما كان ذلك إلا إستعداداً لقول ما لم يجرؤ على قوله، مخبئاً لنا المفاجأة الأخيرة كما يليق به فتى نزقاً مشاغباً ساخراً، وربما أنه تركها في أوراقه وربما أنها راحت معه.

في السنوات الأخيرة كان «يركض» كثيراً إلى البحر، في الليل والنهار، لم ينتظر الفجر، ولم يتعلق بقوانين الطبيعة، إن أشرقت الشمس أو لم تشرق وإن كان البحر صاخباً أم كان هادئاً، كان مغرقاً في ذاته، يعيد الطفل الذي فيه، الطفل الذي فينا، إلى أن انتصرت عليه قوانين الطبيعة، دون أن يكمل كتابه الثالث عن حيفا والذي أطلق عليه في لحظة نوسطالجيا، إسم «الفجر الكذاب».. أبو سلام.. في كل سني حياته تعلق بالفجر، انتظر الفجر الآتي.

(*) الكاتب أديب فلسطيني مقيم في «دالية الكرمل».

صالح خليل سروجي

ساخر الرواية الفلسطينية

أبا سلام..

لماذا سبق رحيلك القاسي الكلمات التي كانت بالطريق إليك؟ كلمات أرادت أن تحمل لك ذكريات آخر اللقاءات في حيفا، وحيفا ذاكرة الفردوس الأخيرة، وحيفا حزينة الآن. وأنت، أين أنت الآن؟ أباق في حيفا؟ وهل ترقد قرب شاطىء الطنطورة الذي تركته وحيداً؟ وسرايا.. أين سرايا الآن؟

ولماذا قلبت نشيد الكلمات رأساً على عقب وسبقت فوضى الحروف والمسافات والريح ورحلت؟ ألم يستطع قلبك التحمّل أكثر من ذلك؟ وهل خططت لرحيلك بعد أن ودعت الأول من أيار لتغيب في الثاني منه ولتعود إلى منصرك الترابي؟ وأنت الآن لا تسمعني. ولكن يماد وباقية ويماد الثانية يفعلن ذلك..

وها أنا أكتب الكلمات التي أفقدت توازن أصابعي. فلن أكتب لك بعد الآن. سأكتب إلى كل الذين لن ينسوك.

إذن..

لا وسع للكلمات الآن، ولا حدود لرقعة الحزن في مساحات أيار وذكرياته. وينضم إميل حبيبي ويلحق بقافلة الذين رحلوا وضربوا جذورهم في ذاكرة المكان وعبث الزمان. فؤاد نصار وإميل توما وتوفيق زيّاد ورفاقهم ليعانقهم هناك خلف غبار الموت ليبقى في ذاكرة الناس الذين أحبّوه والذين تجنبوه أو تركوه يصارع آخر ما تبقى من نسمات الحياة ليموت بطيئاً لوحده. ولكنه لم يكن وحيداً.

لقد تعب إميل حبيبي من رحلة البحث المضنية عن ذاته وعن ذلك الطريق الصعب الشاذ على

إستيعاب صوته الخاص وجسمه النحيل الذي تعب من السفر في آخر المشوار، وتعب من رحلة البحث عن الصدف والسمك ولحم الفقراء، وتعب من البحث عن آخر حروف السخرية لإيصال الصوت الفلسطيني خلف حدود السخرية وخلف أسوار المعقول لتقض مضاجع الذين كانوا يتربصون لهذا الشعب الباقي والعائد والذي يريد أن يعود إلى حقول عبّاد الشمس وحكايات الربيع القديمة.

هل رحل وهل ينام الآن مرتاحاً بعد رحيله وبعد أن تم اللقاء بين حنين وفرح؟!

وهل ذهب الذين نحبهم - كما قال هو يوماً ما - وبقيت إخطية ويعاد وسرايا؟!

ذهب وترك ملح السخرية يلاحقنا ملهباً جراحنا لنضحك على واقعنا المر حتى ننهض ونطرد جراحنا من جراحنا.

وغاب قبل أن يرى القمر الفلسطيني يضيء أزقة وحكايات القدس العربية، وهذا كان حلمه، وسوف يتحقق هذا الحلم كما تحقق حلم «مشارف».

وستفتقد صفحات «الاتحاد» و«مشارف» ريشته المميزة، وسنستمر بقراءة هذه الصفحات باحثين عن حروفه التي لن تصلنا بعد اليوم لنجدها باقية في جرح الذاكرة وفي الأسئلة الشقية التي تركها لنا.

رحل خريفنا في عز الربيع..

و«ذهب الذين نحبهم.. وبقي الذين نحبهم»..

وحيفا أول وآخر الحكايات.. والقدس في طريقها لتروي آخر مشاهد الحلم..

سلام إليك، سلام عليك أبا سلام..

(*) الكاتب فلسطيني ويحمل إجازة الدكتوراة في أدب إميل حبيبي.

بلال الحسن

هل مات الرجل الشرس؟

مثل كل الرجال الكبار حين يغيبون، يثير رحيل إميل حبيبي ذكريات كثيرة، ذكريات يبدو للوهلة الأولى أنها تمتّ إلى الماضي، ولكنها في جوهرها تتطلع نحو المستقبل، ولا ترى إلا المستقبل، فقد كان إميل حبيبي حاضراً في كل الصراعات التي جاهدت لكي تؤسس للمستقبل الفلسطيني، سواء أخطأ في ذلك أو أصاب، وما كان له إلا أن يخطىء أو يصيب، لأن بديل ذلك هو البلادة والسلبية التي يبقى كل واحد محمياً داخل شرنقتها من وطأة عملية التقييم.

لقد كان إميل حبيبي حزبياً شرساً خاض تجربة حزبية حتى أهلكت الحزبية أعصابه، وكان إميل حبيبي سياسياً شرساً طالما شهد الكنيست الإسرائيلي مشاحناته العنيفة، وكان إميل حبيبي صحافياً شرساً حتى استنزفت الصحافة أجمل «جهنمياته» ثم اختار أن يكون أديباً شرساً وقد بلغ من العمر عتياً، فإذا به يشرق من جديد فيرى الأفق وما وراء الأفق، ويدخل عبر الأدب إلى البيوت والقلوب، محققاً عبر تلك الكلمات الجديدة ما حاول أن يحققه عبر الحزبية والسياسة والصحافة فما استطاع.

كنت أسير معه مرة في دروب «أصيلة» المغربية، كان الشباب والأطفال يشيرون إليه ثم يتجمّعون ويسيرون خلفه دون كلام، يكتفون بصحبته، وأحياناً يتقدّم أحدهم ليحدثه أو ليطلب منه توقيعاً، وكان ذلك يتخمه بالمتعة والرضى، فما دامت كلماته قد وصلت إلى «أصيلة» على طرف المحيط الأطلسي، فهو إذاً قد أدى رسالته!

ومرة في النادي الصحافي في الرباط، وكان قد تسلّم الجائزة من إسحق شامير، طلب المنظمون

منه بلياقة أن لا يتحدث عنها لأن الجو وسط الجمهور قد يسيء إليه، فما كان منه إلا أن بدأ الحديث من هذه النقطة بالذات. لم يكن يعتذر، ولم يكن يبرر، كان يشرح ويوضح ويهدر، وكان لسان حاله يقول: نخوض في الطين ولا نتلوّث. ثم كرّت عليه الأسئلة، وكلها تنتقد وتنتقد، إنما بتهذيب قلّ نظيره، وقد عجبت لهذا التهذيب أن يصل إلى هذا الحد، حتى قام أحدهم وقال: إننا ننتقدك لأننا نحبك. فما كان من هذا الرجل الشرس إلا أن قال لهم: بناءً على هذا فأنا أقبل كل انتقاداتكم. وفي تلك الجلسة فسّر إميل حبيبي موقفاً أدبياً في روايته «سرايا بنت الغول» وقام شاب من الجمهور يعترض على التفسير، وأصيب إميل حبيبي بالدهشة، وزادت دهشته حين أخذ هذا الشاب يقرأ غيباً المقطع المختلف على تفسيره، وصمت إميل حبيبي حين أحسّ بأن الجمهور قد أحب روايته إلى حد يحق له فيه أن يفسرها كما يريد هو لا كما يريد إميل.

ومن «المتشائل» إلى «إخطية» إلى «سرايا بنت الغول»، كان إميل حبيبي يتحدث عن فلسطين ويبحث عن فلسطين، إنما كان يتحدث ويبحث من خلال المعاناة والممارسة، ومن خلال الفكرة التي سيطرت عليه دائماً. فكرة «الذين صمدوا فوق أرض فلسطين»، ومن خلال تلك الفكرة ومذاباتها كان حماسه الشديد لإتفاق أوسلو ولتجربة الحكم الذاتي، وكان حماسه الشديد لخوض العراك الدائم دفاعاً عن موقفه رغم كل النقد الذي أحاط به.

حين أصدرنا مجلة «اليوم السابع» في باريس بدأ إميل حبيبي كتابته معنا قائلاً: «كانوا يعيروننا في إسرائيل ويقولون: لقد هزمنا العرب في ستة أيام، وكنّا نرد ونقول لهم: إنتظروا اليوم السابع»، وكانت تلك أجمل تحية يوجهها لنا إميل.

كان إميل حبيبي شرساً مثل شراسة شجرة الزيتون.. حتى أنها لا تعطي ثمرها إلا للأجيال المقبلة. فهل مات الرجل الشرس حقاً؟

(*) الكاتب صحفي فلسطيني مقيم في فرنسا، وكان يرئس تحرير مجلة «اليوم السابع».

هدى الحسيني

الفلسطيني الحقيقي

أنا مع إميل حبيبي أخطأ أم أصاب. أنا مع الرجل الذي عاش أقسى حقبة من التاريخ العربي ولم يفقد إطلاقاً بُعد النظر، إنطلاقاً من الواقع الذي كان يعيش في وسطه، ويعرف قدرات ذلك الواقع تماماً.

إميل حبيبي كان مع السلام الحقيقي ولم يكن مع القتل الذي أوصلنا إلى سلام ضعيف، قبلنا به الآن منتصرين. يعيبون على إميل حبيبي أنه كان الصوت الوحيد الذي طالب عام 1948 بقبول قرار التقسيم، «الذي رفضته كل الدول العربية». ليته نجح إميل حبيبي في ما عجزنا ونعجز عنه، بعد حوالي خمسين عاماً، وبعد خمس حروب وسنوات من الإستنزاف، تخللتها الهزائم وتكوّمت الجثث العربية وتوسعت إسرائيل أكثر، وها نحن نرجوها أن تفاوضنا حسب شروطها، نعاند قليلاً لكننا سعداء في الداخل، إنها ستملي علينا الشروط، لأننا نعرف أننا دائماً نلتزم بشروط الآخرين، ونخل بشروطنا.

إميل حبيبي كان الفلسطيني الحقيقي الذي تخلى عنه الجميع. إميل حبيبي عاش أرضه، ضعفها، قوتها، وعطاءها، والذين يعيبون عليه الآن، عاشوا التنظير السطحي، المبهم الذي يطالب بتحرير العالم عبر أيديولوجيات لا تنطبق على أي واقع عربي.

إميل حبيبي، كانت له قضية، وكانت فلسطين قضيته. إميل حبيبي واجه الإسرائيليين في قلب فلسطين، كانت مسؤوليته كبيرة جداً. فقد كان صوت الذين رفضوا أن يُقتلعوا من أرضهم ومن بيوتهم. لقد طالب إميل حبيبي بالإنفتاح على الكتّاب والمثقفين الإسرائيليين الذين، رغم هيمنة

وتسلّط قيادتهم السياسية والعسكرية، ظلوا يشعرون بوخز الضمير. أراد إميل حبيبي أن يوسع دائرة المدافعين عن قضيته بين الإسرائيليين أنفسهم، بعد أن قرر الكتّاب والمثقفون العرب أن يعتمدوا مبدأ الرفض القاطع، الذي أوصلهم إلى الجدار، الذي عندما سقط، سقط عليهم وعلينا، ولم يحررهم ولم يحررنا.

أنا مع سلام إميل حبيبي، السلام الذي قضى عليه زعماء الرفض والمصفقون لهم من الكتّاب والمثقفين، أنا مع إميل حبيبي، أخطأ أم أصاب، لأن إميل حبيبي يكفيه إنجازاً أنه حافظ على الهوية الفلسطينية في الوقت الذي كان زعماء إسرائيل ينكرون وجود الشعب الفلسطيني.

سلام إميل حبيبي كان أكبر من سلام مدريد، وسلام أوسلو، وسلام «واي بلانتيشين»، لكنه قبل بهذا السلام بعد أن أضاع الرافضون السلام الذي دعا هو إلى قبوله، يعيبون على إميل حبيبي أنه أراد أن يعيش من أجل وطنه، هم يؤمنون بالموت من أجل الوطن، وما ضحى واحد منهم بحياته، ضحّوا بحياة الآخرين وبأوطان الآخرين.

داخل إسرائيل كان إميل حبيبي يقلق راحة إسرائيل، وخارج إسرائيل، وبعد الحروب العسكرية التي تلتها هزائم وحروب إستنزاف وقتل وطن عربي، منح الرافضون جنوداً هادئة لإسرائيل وظلّوا يرفضون وما زالوا، حرموا الشعوب العربية من الحرية ومن الإزدهار الإقتصادي ومن التقدم الحضاري لأنهم يريدون تكريس ثروات الأمة العربية، ليدعموا رفضهم الذي ولد مخصياً.

حزنت كثيراً لرحيل إميل حبيبي، وأعتبر أنه رحل باكراً. لقد كان إميل حبيبي تاريخاً مليئاً لم نستفد منه ولم نتعظ بعبره، لا بل لم نحاول. إميل حبيبي كان الشاهد الأصيل والوحيد، وهو لا بد أنه الآن كعادته من المصرّين على رفضهم بعد أن جرفت العاصفة كل شيء.

لننصف إميل حبيبي ولنكفّ عن تبرير فشل رفضنا وتبرير هزائمنا.

إميل حبيبي كان قضية، والقضية اليوم حية باقية في حيفا.

(*) الكاتبة صحفية في جريدة «الشرق الأوسط» اللندنية.

زياد بركات

إميل حبيبي: ويأتي أهله النائي الغريب

بوفاة الروائي الفلسطيني الكبير، صاحب «المتشائل» و«سداسية الأيام الستة» اللتين أحدثتا هزة عنيفة في السرد العربي، تكون صفحة الرواية الفلسطينية كظاهرة عربية كبرى في نهاية ستينات وسبعينات هذا القرن قد طويت، فبعد عامين على وفاة جبرا إبراهيم جبرا وأكثر من عشرين عاماً على وفاة غسان كنفاني، فإن المشهد الروائي الفلسطيني الآن، ينفتح على صفحة بيضاء جديدة.. صفحة بيضاء، حقاً، تثير الخوف والرهبة والاضطراب، كأنما وقوف على رأس جبل تحته ليس ثمة إلا الهاوية.

ويبدو أن الأمر، بشكل ما، شبيه بما يحدث في مصر، فبعد نجيب محفوظ جاء جيل جديد بإنشغالات مختلفة، جيل يتمتع بموهبة لافتة غير أنه ليس بمستوى تلك القامة المتألقة التي توّجت مسيرتها الإبداعية بأرفع جائزة أدبية في العالم. الأمر يشبه بداية إنحناءة القوس، الأمر يشبه مجيء السادات بعد عبد الناصر والمسيرة السلمية بعد صعود المقاومة في السبعينات، الأمر يشبه الرثاء وولوج مرحلة جديدة، حقاً، سياسياً وثقافياً وإجتماعياً، كأنما المراحل التي سبقت تنظر إلى نفسها الآن من خلال العيون الجديدة، بحزن.. كأنها تذهب إلى الأبد، مخلفة وراءها أبهى ما صنعه العرب في هذا القرن: نجيب محفوظ في الرواية، أدونيس ودرويش في الشعر، وفلسطينياً: إميل حبيبي وغسان كنفاني وجبرا إبراهيم جبرا، وبإستثناء النقد الأدبي والإجتماعي فإن الأمور في تراجع ما من سبيل إلى إنكاره.

في حوار أجريته مع الروائي رشاد أبو شاور، قال إنه ويحيى يخلف وسحر خليفة إمتداد لذلك الجيل المتوهج: جبرا وحبيبي وكنفاني، في الحوار نفسه يبدو حبيبي الأكثر إشكالية، سواء على صعيد التجديد الأدبي أو المواقف السياسية التي لم تحظ بقبول عام في يوم من الأيام.

ببساطة، رحل آخر الكبار روائياً قبل أيام، مخلفاً وراءه فراغاً أعمى، وسجلاً حافلاً من الإختلاف.

حوله أو معه، ضده أو إنحيازاً إليه، ببساطه: رحل الأكثر إشكالية، الفلسطيني الأخير الذي كان إسرائيلياً حيناً وهجاء معظم الأحيان، غير أنه المبدع دوماً والفلسطيني حتى النخاع كل الوقت، فلقد «بقي في حيفا» حسب وصيته، ولم يبرحها إلا للإشتراك في مهرجان هنا أو ملتقى ثقافي هناك، مثيراً خلفه أينما حلّ أو ذهب، إشكالات تعكس في عمقها تعقيدات الإنتقال الفلسطيني من مرحلة إلى أخرى، وحتى أولئك الذين كانوا وما زالوا يتمترسون خلف جدار مقاومة التطبيع، حتى أولئك الذين شنوا حروبهم ضده عندما تسلّم جائزة دولة إسرائيل العليا للآداب عام 1992، حتى هؤلاء، كانوا يعترفون به واحداً من أولئك الفلسطينيين الصابرين الذين لم يتركوا وطنهم بعد نكبة 1948، وظلّوا محافظين على عروبتهم وعروبة أرضهم.

وفي هذا السياق، فإن أولئك الذين قرأوا روايته «إخطية» التي نشرت عام 1985 لأول مرة في مجلة «الكرمل» استرعى إنتباههم، بلا شك، التصدير الذي بدأ به حبيبي روايته، وهو بيتا شعر للمتنبي هما:

لك يا منازل في القلوب منازل
وأنا الذي اجتلب المنية طرفه
أقفرت أنت وهن منك أواهل
فمن المطالب والقتيل القاتل

مما يدل على التعلق الكبير بالوطن، وعلى الأخص بحيفا التي تدور الرواية حولها وفيها، من خلال أزمة سير تتفجر في ذهن الراوي تداعيات متداخلة تعود به إلى الطفولة والإحتلال والبحث عن الخلاص والإيمان بحتميته، وهذا ما بشر به حبيبي في تقديمه العدد الأول من مجلة «مشارف» التي رئس تحريرها والتي صدر العدد الأول منها العام الماضي، حين قال «إن فرحة جيلي بالبوادر الأولى لهذا اللقاء (ويقصد لقاء الفلسطينيين العائدين إلى الوطن بعد أوسلو بإخوانهم الذين لم يبرحوا وطنهم) فوق ثرى الوطن أشبه بفرحة المؤمن بيوم النشور».

مؤكداً «نحن الأم الأصيلة أمام محكمة سليمان الحكيم، وتبقى ثوابتنا، ثوابتكم، هي ثوابت هدبة بن خشرم القديمة:

فيأمن خائف ويفك عان
ويأتي أهله النائي الغريب»

إميل حبيبي: وداعاً.

(*) الكاتب قصصي وناقد فلسطيني مقيم في الأردن.

إيرز بيطون

صاحب خصال الأسد

إميل حبيبي ذكّرني دائماً بشخصية الأسد. كان ذا كفاءة قيادية طبيعية يؤثر على محيطه بقوة شخصيته المقنعة.

كانت لي مع إميل حبيبي عدة لقاءات قيمة. اللقاء الأول كان قبل حوالي خمس عشرة سنة في بيت سهام داوود. كنّا في ذلك الحين مجموعة كتّاب وشعراء يهود وعرباً، وكما أذكر كان في اللقاء سامي ميخائيل، أمنون شموش، المغني شلومو بار، إميل حبيبي وسهام داوود وغيرهم من الكتّاب الذين لا أذكرهم الآن.

نحن، الكتّاب من الطوائف الشرقية، بدأنا يومها إختراقاً أدبياً وجماهيرياً كبيراً وخلال نهضتنا هذه فكّرنا أنه من المهم أن نلتقي مع إخوتنا الكتّاب العرب لخلق عملية تقارب بين اليهود والعرب عن طريق لقاءات الكتّاب.

في هذا اللقاء كان إميل حبيبي بارزاً جداً. الكلام الهادئ والصوت العميق مليئاً بالإحترام والإقناع أضفى على الجو معنوية عالية. بالنسبة لنا، الكتّاب اليهود، كان هذا اللقاء منعشاً وجديداً، جلسنا على وسائد وأكلنا بالتغميس بالأرغفة التي قدمتها لنا صاحبة البيت.

اللقاء الثاني الذي اشترك فيه إميل حبيبي جرى بعد اللقاء الأول بوقت قصير في مسرح «الحكواتي» شرقي القدس، وفي هذا اللقاء أردنا إشراك كتّاب فلسطينيين من المناطق أيضاً. وفي هذا اللقاء كان إميل حبيبي وساد جو من الحوار والتفاؤل.

بعد ذلك أجرينا سلسلة لقاءات مختلفة، وإميل حبيبي كان من أولئك الذين رسموا الطريق بدون أن يفقد هويته الشخصية والقومية.

مناسبة أخرى اشتركنا فيها، إميل حبيبي وأنا، كانت في «بيت الكاتب» في تل أبيب بعد وقت قصير من نيله جائزة إسرائيل للأدب. كنت يومها رئيس رابطة الكتّاب وبادرت إلى إجراء أمسية قرأوا فيها من قصص إميل حبيبي وحللوها. الشاعرة ش. شيفره قدمت محاضرة ممتعة ومفيدة عن كتبه المركزية. وقال لي إميل إنها، حسب رأيه، أصابت بصورة مفاجئة فهم إنتاجه.

لقد أثر إميل حبيبي أيضاً على الأدب الإسرائيلي العبري بشخصيته كإنسان وبكتابته. توفيقه بين كونه مناضلاً سياسياً وبين إنتاجه الأدبي القوي والأصيل أضفى سحراً على كثير منا.

من ناحيتي كان إميل حبيبي قبل كل شيء رفيق درب، ولكن ليس أقل من ذلك كان كاتباً عالمياً. إنتاجه الأساسي هو «المتشائل» يعدّ اليوم، حسب رأيي، في مصاف الإنتاجات الجيدة في الأدب العالمي: السخرية غير المعهودة. النقد الذاتي سوية مع التسامح الإنساني والقدرة على التعبير عن واقع فلسطيني قاس بواسطة الرمزية والثورية الأدبية مع الإبتعاد المطلوب عن المباشرة.. كل هذا يجعله ذا عطاء مهم للأدب في هذه المنطقة. ونحن، الذين نعرفه ونقدره، نفتقد لرفيق درب، معلم وقائد.

لتكن ذكراه مباركة.

(*) الكاتب شاعر عبري من أصل شرقي.

شفيق حبيب

ماذا تبقّى..؟؟

صمت الكلامُ..
وانهلّ فوق رؤوسنا
مطرٌ من الليل المنظلل
والسقّامّ..
ماذا تبقّى غير ما نفخ اليراعُ
عن التوجعّ..
والتطلعّ..
والتصدعّ..
وانهيارات الركّام
على الركّام
ماذا تبقّى
غيرُ فكر أبي سلام؟؟
* * *
يا أيها الممتد؟!
فوق نضاله..
ونصاله..

يا أيها الممتدّ من سبعين عام
إني درستُ على يديك
العشق..
عشق الأمل
والأرض التي تهفو
فيبتعد السلامْ

***

ماذا يقول الحرفُ
في زمن الخيانة..
والمهانة..
وانشراخات الدمّ العربيّ
في عصر الفصام
نامت نواطير العروبة
واستباح القمل أفكار النعام
أنت المنارة
عند سفح الكرمل المحزون
دامعةٌ..
تشير إلى ميادين الحرام
ووكر أرباب الخصام
تهدي إلى «أرض السلام»..

***

كنّا صغاراً حين كنتْ
تشقّ أسداف الظلامْ
أرضعتنا لبن التحدّي
والتصدّي للسهامْ
يا من حملت صليب هذا الشعب

جرحاً راعفاً ألماً وحزناً
في متاهات التداعي والحطامْ
أنت الذي أعطى
ولم يأخذ سوى شوق التراب
وشهد أحزان الحمامْ

* * *

تبكي «سرايا»
عطر كرملها المدامْ
تبكي «يعاد» على شظايا
أهلها..
وعلى بقايا من عظامْ
والورد يأبى
أن يعود إلى الرغامْ
«باق بحيفا»
أيها التاريخ!!
والوجد المؤزر بالهيامْ
باق..
ترد «من الشواطئ»..
والموانئ»
جيش أعداء الحزامْ..

(يوم الرحيل ـ 1996/5/2)

(*) الكاتب شاعر فلسطيني مقيم في دير حنا.

بسام أبو شريف

أبو سلام

.. وعلى الأرض السلام.

إميل حبيبي، يوم التقينا أول مرة، رقصت موسكو بنا ورقصنا طرباً على أصوات النقاش السياسي. وكما يقول أهل موسكو: «إن رأيت بعد منتصف الليل شعاع نور يطل من نافذة مسكوبية فاعرف أن خلف تلك النافذة عرباً يناقشون الوضع السياسي».

كنت قد عرفتك قبل أن ألتقيك.

لكنني تعرفت عليك في ذلك اللقاء:

السنة 1976.. اليوم الأحد، والشهر ديسمبر (كانون الأول) والساعة منتصف الليل يوم 22.

وبقينا على إتصال.. منذ ذلك اليوم، ثم التقينا مرة أخرى في القاهرة عام 1990.. يوم كرّمت القيادة الفلسطينية أدباء وشعراء وفناني الشعب الفلسطيني.. وتحدثنا عن السلام.. أتذكر يوم ارتفعت أصوات تتهم دعاة السلام بالخيانة..

واليوم نرى أصحاب تلك الإتهامات يمتطون صهوة جواد السلام بعد أن كبر المهر وأصبح جواداً.. ولن أستغرب أبداً أن يسير في جنازتك من كال لك الإتهام.. هم كذلك يذرفون دمعاً على جثة من قتلوا!

لكن..

الآن وقد اختفيت من حياتنا يا إميل سوف يسجل من لم يسجل:

أنك عربي وذو عقل عاقل وطليق، عقل من رأى طريق خلاص شعبه، إنك ذلك الطفل الذي

استعار من شارع بلدته «تنكة» ليلعب فيها مع أترابه لعبة «الأبطال والحرامية»، وخرجت عن طوق حزبك لأن قيوده قيّدت منك العنق والفكر لفترة من الزمن.

لكنك كنت كبيراً.. أكبر من إطار الحزب.. أكبر من إطار «الجالية».. أكبر من أن تتسع تلك الأرض لتحتوي فكرك ورؤيتك. حلقت حين ضعف الطير عن التحليق.. وكنت رجلاً حين عز الرجال.. وكنت يا إميل صاحب رؤية.. وكلمة حق حين جهل الآخرون.

لتنصب رحمة الله عليك، وليبق صوتك المبحوح يلعلع داعياً لرؤية الخير.. رؤية السلام.

«فعلى الأرض السلام..».

«..سلام هي متى مطلع الفجر».

(*) الكاتب سياسي فلسطيني.

حسونة المصباحي

وداعاً أيها المعلّم الفذ

أمام الموت، خصوصاً موت الأحبة والأصدقاء، يفتقد الكلام معناه وسحره، يصبح أبيض، بذلك البياض المرعب الذي تمتص به الأكفان. بل يبدو لنا أحياناً كما لو أنه لن ينفع الراحل في شيء غير تعكير صفوه وهو ذاهب إلى صمته الأبدي!

- مات إميل حبيبي! قال لي الصديق حالما رفعت السماعة صباح هذا اليوم. يا للهول!

أمس فقط تلقيت مجلة «مشارف» التي يشرف عليها، وقرأت إفتتاحيته البديعة التي يرد فيها على بعض الكتّاب اليهود الذين وصفوا الفلسطينيين بـ«آكلي لحوم البشر» عقب العمليات الإنتحارية التي نفذها فتيان من منظمتي «حماس» و«الجهاد الإسلامي». واليوم كنت عازماً على أن أرسل له بالفاكس رسالة أعتذر له فيها عن تأخري في إرسال نص حول إيتيل عدنان، كنت قد وعدته به منذ ما يقارب الثلاثة أشهر. غير أن الموت كان لي بالمرصاد كما هو حاله دائماً وأبداً!

يا للهول!

في منتصف شهر أكتوبر (تشرين الأول) الماضي هتف لي من فرانكفورت، كان مدعواً لحضور المعرض الدولي للكتاب. كان يرغب في أن أسافر إلى هناك لمصاحبته. اعتذرت لأني كنت أعدّ نفسي للسفر إلى لندن في اليوم التالي. تحدثنا طويلاً في الهاتف. قال لي أنه متعب وأنه لم يعد يرغب في السفر. كان حزيناً على غير عادته. ولم أسمع منه تلك الدعابات السوداء التي تعوّدت أن أسمعها منه. وعندما وضعت السماعة اعتراني شعور بأني لن أسمع صوته مرّة أخرى!

بوفاة إميل حبيبي، تكون الثقافة العربية قد فقدت واحداً من عمالقتها الذين خدموها بأمانة وإخلاص وحب. أما نحن الذين تعلمنا منه كيف نروّض الكلمة، فإننا لا نقدر سوى أن نقول: وداعاً أيها المعلّم الفذ!

(*) الكاتب أديب تونسي يقيم في ألمانيا.

ليانة بدر

شفافية الوجدان الشقي

ما زلت أذكره جالساً قرب نار الحطب المشتعل في المدفأة. اجتمعنا حوله قبل عشرين يوماً كي نحاوره، وكي نكسب جواهر الكلام منه. هو إميل حبيبي الذي كان يذوي أمام أعيننا يوماً بعد يوم. استحكم المرض به وسرى في أنحاء جسده، ولكنه لم يهبط، ولم يجلس للراحة إلا في أيامه الأخيرة.

تدفق إميل حبيبي وقتها في الكلام، وحكى عن التاريخ الفلسطيني كما يرصد الجغرافي أرض اكتشافاته التي لم يعرفها الآخرون إلا بعد حين. تحدث إميل عن معجزة البقاء في الوطن، كما كان يسميها، وأعاد ما كان يقوله لنا دائماً، إنما بنبرة القلب الداخلي هذه المرة. لم يعد رجل الأفكار المناطح بقدر ما صار شفافية الوجدان الشقي. هذا الوجدان الفلسطيني الذي بحث عن موقعه طويلاً إلى أن وجده في اللحظات الأخيرة.

لم يخف حبيبي حماسته للسلطة الفلسطينية، واعتبرها الجنين الأولي لخلق الشخصية الوطنية، منحها حماسة المناضل ودفء المفكر، ونجا بذلك من مقاربات معقدة صعّبت الرؤيا أمام غيره.

كان يسعى إلى حل قضية سهيلة إندراوس بكل ما أوتي من طاقة. ساهم معنا في تشكيل لجنة تضامن معها، وتابع موضوعها على المستويات السياسية كافة، وأعطاها صوته الأعلى كي يقول «لا» لإدانة مناضلة سابقة في عصر السلام. ماذا سيقول لو عاش الآن، ورآها على منصة الإتهام في ألمانيا، بعد عشرين عاماً على عملية خطف طائرة إلى مطار مقاديشو، وتغيّر الأزمنة والإعتبارات؟

لم يأكل، وقال إنه لا يستطيع بلع الطعام. وعندما سألته عمّا أراد أن يصنع بحياته لو استطاع عيشها من جديد، في إطار المقابلة التي أجريناها لـ «دفاتر ثقافية» التي تصدرها وزارة الثقافة

الفلسطينية، أجاب أنه من المؤسف أن المرء لا يستطيع معرفة ما يريده من الحياة إلا بعد فوات الأوان. وأكد أنه كان يتمنى لو أنه وهب حياته كلّها للأدب والكتابة.

رأيته في النعش، يودعه المحبون والأصدقاء، كان بعيداً ومحدقاً إلى سماء شمسها حارقة، كان بعيداً بجسده الفاني، لكنه كان وسيظل قريباً للغاية، بالسخرية المرة وبالضحكة ذاتها.

إميل حبيبي، ما الذي بقي لنا بعدك غير «التشاؤل»؟

(*) الكاتبة روائية فلسطينية.

حنة عميت كوخافي

إبن هذه البلاد

كان إميل حبيبي رجلاً كبيراً، ضخم الجسم، شعره كثّ ومنطلق، صوته مدوّ وحضوره ذا سطوة يستحوذ على مساحة الحديث والحوار في أي هيئة يشارك فيها. كان فنان الإقتباس والتدقيق وفنان الألم كذلك، في أحاديث الأصدقاء وفي كتابته.

كان إميل حبيبي أديباً كبيراً، كبير الأدباء العرب في إسرائيل، الأول والوحيد بينهم الذي أبدع رواية تلو الرواية، «المتشائل» و«إخطية» و«سرايا بنت الغول»، ولم يكتف، كالكثيرين، بقصص قصيرة ومقتضبة.

كان إميل حبيبي إنساناً شجاعاً، حارب من أجل آرائه على المنصات السياسية، داخل حزبه وعلى منصة الكنيست، وقال ما فكّر به، وكتب ما فكر به، ودائماً بأسلوب مركّب وساخر ومثير.

كان إميل حبيبي مرتبطاً حتى أعماق الجرح في روحه بالماضي، بماضيه قبل خط الإنكسار في الـ48 وما بعده، وبالدرجة نفسها كان متصلاً دائماً بالمستقبل. فقد أحيى ذكرى نسيان الوجود العربي في أرض إسرائيل قبل قيام الدولة، إنتقد بحزم دولة إسرائيل على الموقع الذي خصصته في داخلها لمواطنيها العرب، وانتقد أيضاً أشقاءه العرب لقبولهم بهذا الموقع المهمّش، وفي الوقت نفسه تطلع دائماً إلى أمام، ودعا إلى السلام الذي قيّض له أن يراه في بداية تكوّنه.

وعلى الرغم من ثقل سنواته ومرضه، أسس وحرر مع زملاء إسرائيليين وفلسطينيين المجلة الأدبية ـ الثقافية «مشارف»، إحدى المجلات الأرقى في العالم العربي بأسره، وللأسف، ليس بين المجلات العبرية ما يوازيها من حيث المستوى.

قطع إميل حبيبي شوطاً طويلاً ومثيراً كشخصية إجتماعية، من صحفي وعضو كنيست ومحاور ومقاتل إلى أديب ناجح، وقد تحوّل في الثقافة العبرية من شخصية مرفوضة إلى عزيزة ومحبوبة، فقد فاز بجائزة إسرائيل للأدب، وصار أكثر الأدباء في إسرائيل وبين الأدباء العرب الذي يترجم إنتاجه للغات الأخرى.

وقد ساعده على ذلك مترجمه المخلص، أنطون شماس، الذي أبدع في تفننه بالعبرية مثلما تفنن حبيبي بالعربية، من خلال تجنيد كل كنوز اللغة في الجهد المبذول لإثبات القول في إزدواجية اللغة واستخدام مقولات العامة وإقتباسات القصائد الجاهلية وشعر محمود درويش الذي لم يكن أنسب منه ليرثيه في طريقه الأخيرة.

كان إميل إبن هذه البلاد، من مواليد عهد الإنتداب الذي حنّ إليه أيضاً، إبن حيفا التي عمل وكتب فيها ودفن في ترابها. وقد طلب أن يكتب على شاهدة قبره «باق في حيفا» إشارة إلى رواية غسان كنفاني، إبن هذا الوطن الذي رحل عنه مع لاجئي الـ48 وكتب حنينه من البعيد.

عُرف إميل حبيبي بمقولته أنه من غير الممكن حمل بطيختين بيد واحدة، بطيخة السياسة وبطيخة الأدب، ولكنه في تجربته نقض مقولته هو.

أشهر كتبه روايته الأولى «المتشائل»، وبطله سعيد صاحب الحظ السعيد وسوء الطالع في الوقت نفسه، عربي إسرائيلي عاد متسللاً إلى البلاد مع قيام الدولة ونجح، بثمن كرامته وحبه، في البقاء فيها وقد تحوّلت غريبة بعد أن تبدلت أسماؤها العربية بأسماء عبرية. وقد بقي بقوة المثابرة والحنين إلى حبيبته التي تعود لتظهر له للحظة وتغيب إلى الأبد، والحنين هنا للحبيبة، وهي هنا إمرأة ووطن، صبية لا تشيخ أبداً. وللحبيبة ذاتها كرّس روايتيه التاليتين. وقد تغيّر الإسم - يُعاد، إخطية، سرايا - ولكن جوهرها واحد دائماً.

وصف إميل حبيبي بشكل مثير للدهشة الأماكن التي أحبها - شاطئ عكا حيث قضى ساعات الإستراحة في الصيد، شوارع حيفا التي راها تلقائياً دائماً كما هي قائمة اليوم وعبرها - كما جمّدها الزمن لحظة الهروب الكبير، عندما رحل الذين أحبهم وبقي هو، لحماية الجذوة وللحنين.

رحيل حبيبي يضع فصل الخاتمة لحقبة عمالقة الثقافة القليلين بين العرب الذين بقوا في إسرائيل بعد الهروب الكبير وكرّسوا كل حياتهم لترميم ما بقي ولبناء الجديد. محمود درويش، إبن الجيل الذي خلفه، عاد إلى حيفا بعد غياب طويل، حتى يودّع معلمه، وبذلك انفتحت صفحة جديدة، ولكن هذه قصة أخرى.

(*) الكاتبة محاضرة ومترجمة في موضوع الأدب العربي.

(من العبرية: مرزوق حلبي)

محمد كعوش

رحل «المتشائل» وبقي المتشائم!

أعترف لك..

أعترف أنك هزمتنا يوم كتبت على شاهدة قبرك عبارة هي الأجمل: «باق في حيفا».

في حيفا ولد إميل حبيبي وفيها عاش حياته وفي ترابها استقر إلى الأبد..

أعترف لك..

شاهدتك في القاهرة قبل سنوات قليلة وهي المرة الأولى.. ولم أصافحك، ولم أتحدث إليك، رغم الرغبة في اللقاء والحديث والعناق، ورغم الرغبة الشديدة التي كانت تدفعني للمسك باليد التي عليها شيء من تراب الجليل..

لم أصافح إميل حبيبي، ولم أتحدث إليه، رغم مفاجأة الصدفة الأولى للقاء «المتشائل» الذي أدهش جيلاً عربياً منذ بدايته التي حققت مجده وجعلت منه «ماركيز الفلسطيني»..

أعترف لك..

خذلتك مرتين.. في المرة الأولى عندما شنّ عليك المثقفون حملة واسعة بعد تسلمك جائزة وزارة الثقافة الإسرائيلية لأنك مبدع وليس لأنك سياسي، ولم أدافع عنك في ذلك الوقت.. وفي الثانية عندما امتنعت عن مصافحتك بحرارة الشوق إلى الجليل العربي.

في المرتين لم يكن التصرف عن قناعة.. ولكن عن جبن وخوف من الإرهاب الثقافي والفكري.. الخوف من الموجة الإنفعالية التي تحمل في طياتها حالة الإنفصام عند المثقف البعيد عن النضوج والوعي والواقع..

أعترف لك..

كلنا يعرف أنك رمز من رموز الصمود العربي، وكنت في مقدمة الذين حافظوا على الهوية والتراث وطالبوا بحقوقهم وحقهم في العيش بكرامة في ديارهم وفوق أرضهم..

ونعرف أن من بين الذين رشحوك للجائزة من الإسرائيليين بعض الذين ينادون بإعطاء الشعب الفلسطيني حقوقه كاملة.

رغم ذلك.. جلدك المثقفون بلا رحمة ونسوا كل تاريخك النضالي..

الآن نتسابق إلى رثائك، ونتنافس في اختيار أجمل الكلمات التي تليق بك.. يا «أبا سلام»..

أعترف لك..

لقد هزمتنا لأنك بقيت في حيفا.. فارقد بسلام.. أيها المتشائل..

(*) الكاتب فلسطيني مقيم في الأردن.

محيي الدين اللاذقاني

خصومة ومحبة

ليس سهلاً أن تحب شخصاً تختلف معه سياسياً على قضايا كثيرة، وخطيرة، ومع ذلك فقد أحببت إميل حبيبي منذ أول لقاء عاصف بيننا، ولذلك اللقاء قصة تطول. فقد تحاورنا بعنف وصل أحياناً إلى حد الشتيمة السياسية قبل أن نلتقي، ونتشاجر، ونتحاور وجهاً لوجه ثم نضحك وننصرف بعد أن نجحنا جزئياً في أنسنة ذلك الإختلاف.

لقد جرى ذلك اللقاء الذي أعطيناه لاحقاً إسم «أمسية المصالحة التاريخية» في منزل رئيس تحرير «الشرق الأوسط» عثمان العمير، عام 1987، وكان إميل قد وصل قبلي إلى تلك الأمسية المسجّلة تفاصيلها بدقة في الذاكرة، لذا لم ينتظر علي كثيراً حين وصلت، فما أن سلّمت وجلست في مواجهته حتى انفجر صارخا بسؤال عجيب:

-من أين علمت أن لي يختاً يرسو على شواطىء حيفا؟

وأمام ذلك السؤال فهمت إشارته المبطنة إلى آخر مقال هاجمته فيه، وكان بعنوان «إذا أردت أن تهاجم الكوفية فلا تلبس قبعة الحاخام»، وفي ذلك المقال تعجبت بعد أن تحدثت عن الجانب القومي، من أولئك الذين ينظرون للبروليتاريا من فوق ظهور يخوتهم التي تمخر بهم عباب البحر الأبيض المتوسط، فضحكت ورددت على السؤال باستفهام إستنكاري فقلت:

-وهل هو موجود أم لا؟

وقال إميل رحمه الله يومها: نعم هو موجود، ولكنه ليس يختاً إنما قارب مخلّع. صحته أسوأ من صحتي. ثم انتحى بي جانباً، وبدأ يحدثني عن حلمه بامتلاك قارب كبير وأكد أنه سينفذ تلك الفكرة بمجرد أن يتسلم مكافأته من هيئة الإذاعة البريطانية التي أرادت في تلك الفترة شراء الحقوق الدرامية لـ «المتشائل»، ومنذ ذلك اليوم صار القارب هو الموضوع الأول الذي نتحدث حوله كلما التقينا في بريطانيا والمغرب ومصر.

ولم يكن ذلك التقارب الإنساني قد أنهى الخلاف السياسي لكنه خفّف من نبرته: فقد تحاورنا

لاحقاً على صفحات الجرائد ولكن بعنف أقل، ومودة أكبر، وأوشكت في إحدى تلك المرات على مقاطعة الزميل بلال الحسن، رئيس تحرير «اليوم السابع» - آنذاك - لأنه منع نشر ردي على إميل حول قضايا أثارها على الصفحة الأخيرة من تلك المجلة، مفنداً ما سبق أن قلته من التطبيع. وعرف إميل بذلك، فنشر وجهة نظري، كما قيل لاحقاً، في جريدة «الإتحاد» الحيفاوية. وهكذا كانت السياسة تأتي بعد التقارب في كل لقاء، وحتى دون أي لقاء، ومن ذا الذي يستطيع أن ينجو من السياسة حين يكون إميل حبيبي طرفاً في أي حوار؟

والمرة الوحيدة التي لم نتحدث فيها عن السياسة والتقارب كانت في طنجة بالمغرب قبل أربعة أعوام. فقد كنا وقتها نحضر مهرجان أصيلة، ونقيم في فندق الريف في طنجة، ولذلك الفندق مسبح داخلي هبطت إليه في السابعة صباحاً ذات يوم، فوجدت إميل هناك، فطلبنا قهوتنا، وغطسنا غطستين، ثم تشبثنا بأطراف المسبح، وغرقنا في حوار طويل عن السمك والنساء، وتوصلنا إلى قناعة بأن هذين الجنسين هما أفضل ما في الكون بدليل أن عرائس البحر صنعت مناصفة من أنوثة وأسماك.

وفي كل هذه اللقاءات كان الوجه الإنساني لإميل حبيبي يزداد وضوحاً، وقرباً إلى القلب، وكان لا بد أن أقوم بالفصل بينه، وبين الوجه السياسي لأحبه أكثر. وكان الوجهان يتشابكان أحياناً، ويربكانني في المحافل العامة إلى درجة أني دافعت عنه علناً في لقاء مفتوح بمعرض القاهرة الدولي للكتاب قبل عامين واعتبرته الكاتب الوحيد الذي قام بعملية نقد ذاتي لتكوينه السياسي الأول في أحزاب اليسار، ثم استدركت، وتمنيت أن يقوم بالنقد نفسه لرؤيته للتطبيع، لكنه كان، كما كنا ندرك في قرارة أنفسنا، إبن تجربة مختلفة. فنحن لم نعش تحت ظل الإحتلال، لذا لم يكن من حقنا، ولا حق أحد غيرنا، أن نتحدث عن مواقف عرب الـ 48 الذين بلوروا رؤية لا تستطيع إلا أن تحترمها مهما اختلفت معها. لكن إميل حبيبي، رحمه الله، حاول أن يعمم تلك الخصوصية على الموقف السياسي بشكل عام، وما كنا نستطيع أن ندعمه أو نجاريه في ذلك، فقد ظل التطبيع قضية مرفوضة بالنسبة لجيلنا، وللجيل الآتي بعدنا - ربما - لأن معظم ما في المناخ السياسي العام لا يشجع على قبول تلك التوجهات التي ظلت مثار خصومات وحوارات طويلة بيننا وبين الراحل الكبير.

لقد كان إميل حبيبي شريفاً في خصومته، ومخلصاً في صداقته، وشجاعاً في مواقفه، ومثيراً للزوابع في كل مكان يحل فيه. وهل الأديب الحقيقي إلا ذلك المزيج العجيب من الصفات التي لا تملك إلا أن تحبها مهما اختلفت مع صاحبها ومواقفه التي أملتها تجربة أخرى لم نخضها ولم نكتو بنارها كما اكتوى بها ذلك المحب الكبير للأدب والحياة.

(*) الكاتب شاعر وناقد سوري، وهو محرر الصفحات الثقافية في جريدة «الشرق الأوسط» اللندنية.

أمجد ناصر

بقي إميل حبيبي في حيفا!

رحل إميل حبيبي المتفائل دائماً وترك لنا درّته «المتشائل».

رحل الساخر من كل شيء حتى من نفسه.

رحل «أبو سلام»، السنديانة الفلسطينية بحق، تاركاً في نفسي ظلالاً من الذنب على الصلافة التي كتبت بها عنه غداة تسلمه جائزة «إسرائيل» الأدبية.

لست أعتذر، هنا، عن الموقف نفسه ولكن عن طريقة طرحه التي لم تكن تليق بسنه ولا بمنزلته الأدبية ولا بدوره الكبير في الحفاظ على الهوية العربية لفلسطينيي الـ 48. كنت أرغب، صادقاً، أن تأتي فرصة أعتذر له فيها عن «الولدنة» التي تناولنا فيها الموضوع. لكنني لم أره منذ تسلم الجائزة، قد يكون زار لندن أكثر من مرة غير أنه لم يعرج علينا كما اعتاد أن يفعل طيلة سنين.

❊ ❊

كان لإميل حبيبي وجهة نظر خاصة في ما يتعلق بالصراع العربي ـ الإسرائيلي نابعة من الوضع المعقد الذي آل إليه مصير فلسطين المحتلة عام 1948، فهو لم يكن يرى أن تحرير فلسطين من النهر إلى البحر ممكن بعد قيام إسرائيل والميل الدولي الكاسح لبقائها والحفاظ على أمنها. فقصارى ما يمكن نيله فلسطينياً، هو إقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة.

كان هذا الرأي الذي بدأنا نقرأه لحبيبي في مستهل السبعينات يتواكب مع إتجاه طفق يتبلور داخل الساحة الفلسطينية يدعو إلى ما سمي، آنذاك، بالحل المرحلي.

وهو لا يبتعد كثيراً عن رأي حبيبي الواضح وإن كان يختلف معه في الآفاق النهائية، الغامضة حقاً، للحل.

كانت هذه هي بداية الصدام الأولي بين حبيبي وبين الداعين إلى تحرير فلسطين التاريخية من خلال الإطاحة العنيفة بدولة إسرائيل. فقد هاجمهم أكثر من مرة باعتبارهم «يساريين طفوليين» أو

«قومجيين» لا يعيشون في الواقع ولا يدركون موازين القوى التي تتحكم فيه. ظلّ هذا السجال دائراً وقتاً طويلاً بين إميل حبيبي ورافضي الحلول السلمية حتى انتصر «الأمر الواقع» لرؤاه ولكن على نحو أدنى كثيراً مما كان يأمل.

وبالنسبة لي شخصياً فقد كنت أفضّل أن أتعامل مع أدب إميل حبيبي لا مع سياسته. لكن حبيبي لم يكن من النوع الذي يقول قولته ويمشي. بل ينافح عن آرائه بصلابة ساخراً، على نحو مرير، من معارضيه.

ومع ذلك فلم تكن تنقصه الشجاعة لينتقد نفسه أو ليراجع موقفه. ففي سنواته الأخيرة أجرى «جردة حساب» لعلاقته التاريخية مع «المنظومة الإشتراكية» ولوضعه القيادي داخل الحزب الشيوعي الإسرائيلي أدت إلى خروجه، نهائياً، من الحزب الذي كان أحد مؤسسيه. أما حول علاقة السياسي بالثقافي وأولويات الكاتب فلطالما سمعناه يردد، في السنوات الأخيرة، قوله الشهير: إن المرء لا يستطيع أن يحمل بطيختين بيد واحدة. وفي لقاء جمعنا به ومحمود درويش في لندن قبل ثلاث سنين اعترف حبيبي أن محاولته حمل «بطيخة السياسة» و«بطيخة الأدب» بيد واحدة أضرّته كثيراً ككاتب، وقال إنه كان من الأجدى له لو اقتصر الأمر على «بطيخة الأدب».

**

وحبيبي لم يكن يطلق سهامه الساخرة المؤلمة في اتجاه من كان يحلو له تسميتهم بـ «المتطرفين» عرباً، بل لم يقتصر البتة بحق المثقفين الإسرائيليين اليمينيين. وكانت له صولات أخرها مع الكاتب الإسرائيلي المعروف يزهار سميلانسكي صاحب رواية «خربة خزعة» التي ترجمها إلى العربية توفيق فيّاض أوائل الثمانينات.

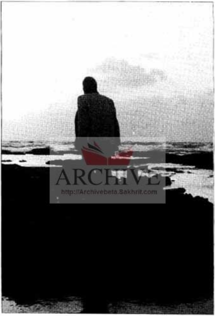
وتشاء الصدف أن تكون هذه آخر صولاته وفيها يسن حبيبي أسنانه ضد سميلانسكي الذي طالب الحكومة الإسرائيلية بالتوقف عن التفاوض مع الفلسطينيين الذين وصفهم بـ «أكلة لحوم البشر»!

وفي المقالة هذه نحن إزاء «الأسلوب الحبيبي» نفسه دون أن ينال المرض العضال والشيخوخة من «ثوابته السياسية» أو من عصبه أو من سخريته المكينة أو، وهذا هو العجيب، من تفاؤله البالغ بانتصار السلام.

**

الأكيد، على كل حال، أن ما أوصى أن يكتب على قبره بعد وفاته هو الأكثر دلالة من أي شيء آخر: «إميل حبيبي: باقٍ في حيفا»!

(*) الكاتب شاعر أردني، وهو محرر الملحق الأدبي في جريدة «القدس العربي» اللندنية.



إميل حبيبي في «تل السمك»، حيفا، 1996/4/18
تصوير: سهام داوود